

النجاح والفلاح في القرآن الكريم

بحث في تفسير موضوعي

مُحَمَّدُ خَيْرُ رِضْوَانِ يُوسُفَ

١٤٤٢هـ

النجاح والفلاح في القرآن الكريم

بحث في تفسير موضوعي

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على جزيل ثوابه، والصلاة والسلام على محمدٍ رسوله، وعلى آله وصحبه. الفوز، والفلاح، عنوانان بارزان للدلالة على النجاح في القرآن، وأكثر ارتباطهما بنتيجة الأعمال في اليوم الآخر. وهي الفوز بالجنة، وبرضا الله تعالى. وفي عمومها ما يدلُّ على أنَّ هذه النتيجة العالية لا يُحصل عليها إلا بالإيمان، والعمل الصالح، بشرط أن يتوفرَ فيهما عنصران: الإخلاص، وموافقة الشريعة.

وكل مسلم يسعى في هذه الحياة الدنيا ليصل إلى هذه النتيجة، أو يحبُّ أن يفوزَ بالجنة. وقد أحببتُ أن أبحثَ في كتابِ الله تعالى عن معالم هذا الفوز، وطرق الفلاح، وأسباب النجاح فيه، لتكون دليلاً للمسلم، وباباً، أو أبواباً يدخل منها إلى ساحات الأعمال الصالحة، المتنوعة، التي تُرفع إلى السماء، ويقبلها الله، ويعطي عليها الثواب العظيم، ليُدخل بها أصحابها الجنة. فوجدت منها ما يدلُّ على الأخلاق، والأخوة، والتقوى، والحشية، والإنفاق، والجهد، والصبر، والدعوة، والثبات، والتعلق بالآخرة... وغيرها.

ولا شكَّ أن هناك أسباباً أخرى تؤدي إلى الفوز والفلاح، ولكني اقتصرت هنا على ما ذكر في القرآن أنه كذلك، أو بيّن أجره العظيم.

وجعلت موضوعاتها في فقرات، وجمعت لها ما ورد من الآيات الكريمة، دون تكرار، إلا ما ندر، وتفسيرها بأسلوب مشوّق، وفي موضوعات متناسقة، لتكون محفزة للقراءة، وجاهزة للاستفادة، عسى أن يفلح بها من وجد الله في قلبه خيراً، وقد عزم على ذلك.

ومادة التفسير كلها من (الواضح في التفسير) الذي وفقني الله لإعداده، وقد جمعته من تفاسير عظيمة، ومزجت فيه بين المأثور والمعاصر، والعلم والدعوة، والإرشاد والتربية. وقد لقي قبولاً بفضل الله.

أدعو الله تعالى أن ينفعي وأهلي وإخواني به، وأن يجعلنا جميعًا من عباده المفلحين، الفائزين
برضاه، وبجنته.

والحمد له أولاً وآخراً.

محمد خير يوسف

المحرم ١٤٤٢ هـ

إستانبول

الأخلاق الحميدة

الأخلاق العالية لا يؤتاها كلُّ أحد، ومن طُبِعَ عليها، أو بعضها، فقد أُوتِيَ خيرًا عظيمًا، وعاشَ معها حياةً سعيدة!

وفي حديثٍ حسنٍ رواه الترمذي وغيره، أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن أَكْثَرِ ما يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فقال: "تقوى الله وحُسْنُ الخُلُقِ".

ومن التصرفات الحميدة، التي لا تأتي إلا من أخلاقٍ كريمة: إذا أساءَ إليك أَحَدٌ، فادْفَعْهُ عنكَ بالإِحْسَانِ إليه، فإذا فعلتَ ذلكَ خضعَ لكَ حَصْمُكَ، وانقلبتِ الحالةُ بينك وبينه إلى سَكِينَةٍ بعدَ هِياجٍ، وإلى هُدوءٍ بعدَ ثورانٍ، وصارَ كأنَّهُ منَ الأَصْدِقاءِ المُقَرَّبِينَ إليك، بعدَ أنْ كانَ شَدِيدَ العَدَاوَةِ لكَ.

ولا يَفوزُ بهذهِ الخِصلةِ العَظيمةِ، ولا يَحْضُلُ على هذا الخُلُقِ السَّمحِ العَالي، وهو دَفْعُ السَّيِّئَةِ بالحِسنَةِ، إلا الصَّابِرُونَ، الذين يَكْظُمُونَ غَيْظَهُمْ، وَيَحْتَمِلُونَ المَكْرُوهَةَ مِنَ النَّاسِ، ولا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا مَنْ كانَ مُتَّصِفًا بِمكارِمِ الأخلاقِ ومَعاليها، وذًا نَصيبٍ كَبيرٍ من خِصالِ الخَيْرِ:

{وَلَا تَسْتَوِي الحِسنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}

{وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [سورة فصلت: ٣٤ - ٣٥].

ووصفَ اللهُ تعالى نبيَّنا محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [سورة القلم: ٤]، أي: إِنَّكَ لَعَلَى أَدَبٍ عَظِيمٍ، وأخلاقٍ كريمةٍ عالية، لا يُدْرِكُ شأَواها أَحَدٌ مِنَ الخُلُقِ. وعندما سُئِلتَ أُمُّنا عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها عن أخلاقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالتَ للسَّائلِ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قال: بلى. قالت: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ القُرْآنَ. رواه مُسلمٌ في صَحِيحِهِ.

وَأَتَى اللهُ تعالى على عبادِهِ المُؤْمِنِينَ الذين إذا ثاروا وَغَضِبوا لم يَظْلِموا النَّاسَ ولم يَنْتَقِموا، ولكنْ أَنابوا إلى رَبِّهِمْ وَعَلِموا ما عندهُ مِنَ الثَّوابِ فَكْظَموا غَيْظَهُمْ، وَحَلَموا وَعَفوا عَنْهُمْ:

{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } [سورة الشورى: ٣٧].

وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَذَى، وَعَفَا عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَتَرَكَ الْإِنْتِصَارَ لِنَفْسِهِ ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ وَالْعَفْوَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْحَمِيدَةِ، الَّتِي عَلَيْهَا ثَوَابٌ جَزِيلٌ: { وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [سورة الشورى: ٤٣].

الصبر

وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَهُوَ الْفَائِزُ. وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ.
فَالصَّبْرُ خَيْرُ صِفَةٍ تَحْلُونَ بِهَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِتَحْمُلِ الْبَلَايَا وَالرِّزَايَا وَمِشَاقِقِ الدَّعْوَةِ، وَالْعَزْمِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالقُرْبَاتِ، وَتَرْكِ الْمَأْتَمِّ وَالْمَحْرَمَاتِ.
وَكَذَا الصَّلَاةِ، الَّتِي تَشُدُّ الْعَزِيمَةَ، وَتَجِدُّ الطَّاقَةَ، وَتَمَلُّ الْقَلْبَ نُورًا، وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ - أَيْ هَجَمَ عَلَيْهِ أَوْ غَلَبَهُ - صَلَّى، كَمَا فِي حَدِيثٍ حَسَنِ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.
ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، يُؤْنِسُهُمْ، وَيُؤَيِّدُهُمْ، وَيُنَبِّئُهُمْ، وَيَزِيدُ مِنْ قُوَّتِهِمُ الضَّعِيفَةَ.
قَالَ سُبْحَانَهُ:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [سورة البقرة: ١٥٣].

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى أذْيَةِ قَوْمِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ إِلَيْهِ، كَمَا صَبَرَ نُوحٌ وَغَيْرُهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ، وَالظَّفَرَ وَالْفَوْزَ، يَكُونُ لِصَالِحِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّابِرِينَ الْمُتَّقِينَ: { فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [سورة هود: ٤٩].

كَمَا طَلَبَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ، فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، حَتَّى يَمُوتُوا عَلَيْهِ.

وَأَنْ يَصَابِرُوا أَعْدَاءَهُمُ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ دَائِمًا أَنْ يُزَعِزُّوهُمُ بِإِيمَانِهِمْ وَيَقْضُوا عَلَيْهِمْ، فليكونوا أصبرَ منهم وأقوى حتى يَغْلِبُوهُمْ...

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [سورة آل عمران: ٢٠٠].

وهناك أنبياءٌ كثيرٌ قاتلَ معه جماعاتٌ مِنَ الصَّابِرِينَ الأبرارِ الأتقياءِ، فما ضَعُفَتْ نفوسُهُم من الكَرْبِ والبلاءِ، وما وَهِنُوا لِمَا أصابَهُم من الشَّدَّةِ والجراحِ، وما تَوَقَّفُوا عن متابعةِ الجهادِ في سبيلِ الله، وما استَسَلَمُوا لأعداءِ الله ولا ذُلُّوا، بل قاتلوا على ما قاتلَ عليه أنبياءُهُم حتى لَحِقُوا بهم، واللهُ يُحِبُّ المدافِعِينَ عن دينه، المتَّبِعِينَ لأوامرِ أنبيائه، الصَّابِرِينَ في أوقاتِ الشَّدَّةِ والحَرْبِ: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } [سورة آل عمران: ١٤٦].

وكانوا مع جهادِهِم وطلبِهِم رِضاءَ الله يقولون: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا مَا اقْتَرَفْنَا مِنْ ذُنُوبٍ، وما تجاوزنا فيه الحدَّ، وفرَّطنا من أمرٍ، وأيَّدنا بتأييدٍ من عندكَ في مواطنِ الحَرْبِ، وثبتتنا على دينِكَ الحقِّ، وانصُرنا على أعدائِكَ وأعداءِ دينِكَ مِنَ القَوْمِ الكافرين: { وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكافرين } [سورة آل عمران: ١٤٧].

فكانَ جزاءَ هؤلاءِ المؤمنِينَ الصابِرِينَ وجوابَ دُعائِهِم، أن آتاهُم ثوابَ الدنيا بالنصرِ والعِزِّ والعاقبةِ الحسنةِ، وفي الآخرةِ النعيمِ الدائمِ، واللهُ يُحِبُّ من آمنَ وأحسنَ، وأتبعَ إيمانهُ بالعملِ الصَّالحِ:

{ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [سورة آل عمران: ١٤٨].

وما عندَ الناسِ من مالٍ ومتاعٍ يَنْتَهِي وَيَزُولُ، فمُدَّتُهُ قَصِيرَةٌ مهما كَثُرَ، وما ادَّخَرَهُ اللهُ في الآخِرَةِ لمن صَبَرَ عاى طاعتهِ من ثوابٍ ونعيمٍ يَدُومُ ولا يَنْقَطِعُ أبداً، وَسَوْفَ يُجَازَى مَنْ صَبَرَ على تَكاليفِ الوفاءِ بالعُهودِ أَفضلَ ما يُجَازَى به المرءُ على أعمالِهِ حَسَنَةً عَمَلَهَا:

{ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[سورة النحل: ٩٦].

لقد أثابهم الله يوم القيامة على إيمانهم وصبرهم فجعلهم من السعداء المفلحين، الفائزين بالجنة والتعيم:

{ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ } [سورة المؤمنون: ١١١].

الإِنْفَاقُ الْخَالِصُ

الذين يُنْفِقُونَ أموالهم في سبيلِ اللهِ ومَرْضَاتِهِ، من خَيْرَاتِ وَصَدَقَاتِ، ولا يُتْبِعُونَ عطاءهم هذا بَمَنٍّ ولا أَدَى، فلا يَمْتَعِضُونَ مِنَ السَّائِلِينَ ولا يَتَكَبَّرُونَ عَلَيْهِم، ولا يُعَيِّرُونَهُمْ ولا يَتَطَاوَلُونَ عَلَيْهِمْ بِكَلَامٍ لا يُجِبُونَ سَمَاعَهُ أو نَشْرَهُ، بل يُعْطَوْنَهُمْ بِخُلُقٍ طَيِّبٍ وَنَفْسٍ رَاضِيَةٍ، فهؤلاء لهم أَجْرُهُمُ الْكَبِيرُ الموعودُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ولا يَلْحَقُهُمْ مَكْرُوهٌ فِي الدَّارَيْنِ، ولا هم يَأْسَفُونَ عَلَى ما فَاتَهُمْ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، فقد صَارُوا إِلَى ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا:

{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [سورة البقرة: ٢٦٢].

والذين يُعْطُونَ أموالهم في سبيلِ الله، وطلبًا لِرِضاه، ورجاءً ثوابه، وهم مُتَيَقِّنُونَ أَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ عملهم هذا، بل سَيُثِيبُهُمْ عَلَيْهِ ما داموا أَخْلَصُوا نِيَّاتِهِمْ وآمنوا بيومِ الجزاء، فإنَّ مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ حَديقَةٍ عَلَى رابِيَةِ هَاطِلٍ عَلَيْهَا مَطَرٌ شَدِيدٌ، فَأَثْمَرَتْ ضِعْفِي أَمْثالِها مِنَ الحِداثِقِ. فإذا لم يَنْزِلْ عَلَيْها مَطَرٌ كَثِيرٌ فَزَادَ يَكْفِي لِسَقِي تَرْبَتِها الخِصْبَةَ.

وهو كَعَمَلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَنْقَطِعُ كَذَلِكَ، بل يَتَقَبَّلُهُ اللهُ وَيُضَاعِفُهُ لَهُ. ولا يَخْفَى عَلَى اللهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْها.

وفيه ترغيبٌ في الإِخْلاصِ، مع تحذيرٍ مِنَ الرِياءِ ونحوه.

قال سبحانه:

{ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [سورة البقرة: ٢٦٥].

ثم بيّن الله تعالى أنّ الذين يفعلون الخيرات ويتصدقون من أموالهم في سبيل الله في كل أوقاتهم وأحوالهم، ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، حتى من أنفق على والديه وعياله وخدمه الفقراء وأقربائه... فلهم عند الله الثواب العظيم، ولا خوف عليهم يوم الحساب عندما يخاف البخلاء الأشحاء، ولا يحزنون إذا تأسف المفرطون المسرفون:

{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: ٢٧٤].

إنّ الذين يُداومون على قراءة كتاب الله الكريم، وحافظوا على إقامة الصلاة في وقتها، وبأركانها وشروطها، وأنفقوا ممّا رزقهم الله في الطاعات والثربات في السرّ والعلانية، فأولئك يرجون ثواباً من عنده على تجارتهم الطيبة المباركة، التي لا تكسب ولا تفسد. ليؤفّقهم الله ثواب ما قدّموه من أعمالٍ صالحة، ويضاعف في حسنتهم من رحمته وكرمه، والله عفوٌّ لما فرط من ذنوب المؤمنين المطيعين، شكورٌ لطاعاتهم ولو كانت يسيرة، ويجازيهم عليها أحسن الجزاء:

{ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ }.

{ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَبْدِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ عَفُورٌ شَكُورٌ } [سورة فاطر: ٢٩ - ٣٠].

فالذي يُنفق من ماله في سبيل الله، من جهادٍ وغيره من أعمال البرّ، بإخلاصٍ وطيب نفس، فالله يقبل منه، ويضاعف له الأجر والثواب أضعافاً كثيرة، وله عند الله جزاءٌ كريمٌ مرضيٌّ: { مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجرٌ كريمٌ } [سورة الحديد: ١١].

وما تُنفقوا في هذه الحياة الدنيا من وجوه الخير والبرِّ، تجدوا ثوابه يوم القيامة أكثر وأوفر عند الله أجراً:

{ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا } [سورة المزمل: ٢٠].

وتوفيقُ الله للمنفق يكونُ بشرطِ الإيمان:

فأما من أنفق من ماله في سبيلِ الله كما أمر به، واتقى الله فيما هَمَى عنه، وامتنل لأمره وأطاع، وآمن بالكلمة الحسنى: لا إله إلا الله، وصدق بالجزاء والحساب، والثواب والعقاب، فسُنُوْفُهُ لِعَمَلِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا، وَطَاعَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ.

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى }

{ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى }

{ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى }

[سورة الليل: ٥ - ٧]

وهذان مثالان فيهما مقارنة بين منفق ناجح في كسبه، نافع لمجتمعه، وآخر عكسه: عبدٌ مملوك عاجز لا يقدر على عمل، ولا يقدم شيئاً لسيدِه لينتفع به، وآخر عاملٌ مُنتج يكسب مالا طيباً حلالاً، ويُنفق منه على المحتاجين والملهوفين سراً وعلانية، فهل يستوي بطالٌ عاجز وعاملٌ نشيط ينفع أهله ومُجتمعه؟ إنهم لا يستوون، ولكن أكثر المشركين الجاهلين لا يعلمون ذلك حقيقة، ولا يُطبّقونه واقعاً، فهم يُسُونون في العبادة بين ربِّ العباد وهو خالقهم ورازقهم، ومخلوقاته من الأصنام التي لا تقدر على إنتاج شيءٍ ونفع أحد؟ والله المثل الأعلى. ومثل آخر ضربهُ الله لكم: رجُلان، أحدهما أخرس أصم لا ينطق ولا يسمع، ولا يفهم ولا يفهم، ولا يفعل شيئاً ينفع به نفسه أو الآخرين، وهو عيالٌ ووبالٌ على أبيه العامل أو من يعوله، فإذا كلفه بشيءٍ رجع ولم يفعل شيئاً. فهل يستوي هو وآخر يقول الحق ويأمر بالمعروف والقسط، وينهج منهجاً صحيحاً مستقيماً ويعمل صالحاً؟ لا شك إنهم لا يستوون، ولكن المشركين الضالين يجعلون من الأصنام البكماء آلهة، ويُسُونون بينها وبين الله تعالى في العبادة!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عثمان بن عفان ومولى له، كان يُنفق عليه ويكفيه الموثونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف. والعبرة بعموم اللفظ وما يرمي إليه.

الآيتان:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {

} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [سورة النحل: ٧٥ - ٧٦].

وَمَنْ مَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْبُخْلِ وَالْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَفَازَ. قَالَ سُبْحَانَهُ: { وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [سورة الحشر: ٩].

الوسطية

الوسطية طريقها معتد سهل، فلا تكلف فيها ولا تعقيد. وفيها راحة للنفس، وتيسير في التعامل. وهي من سبل النجاح في الحياة.

ومن ناحية المعيشة: لا تبخل بما رزقك الله وكأن يدك مقيدتان إلى عنقك، ولا تبسطهما كذلك وتدعهما مفتوحتين لا تمسكان شيئاً، فيذهب كل مالك وتقعُد نادماً كئيباً، عاجزاً ضعيفاً.

والمطلوب الاقتصاد في العيش، والوسطية في الإنفاق، والتوازن بين التقدير والتبذير: { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا } [سورة الإسراء: ٢٩].

الدنيا والآخرة

عاتب الله تعالى من وجّه دعاءه لطلب الدنيا وحدها، فإنه لا نصيب له في الآخرة، لأنه لم يسأل لنفسه خيرا.

ولكن الإحسان في الدعاء هو من جمع فيه بين خيري الدنيا والآخرة، ليفلح فيهما، فيقول: ربنا أعطنا جماع الخير في الدنيا والآخرة.

وهو كأن يدعو لنفسه بالرزق الواسع، والزوجة الصالحة، والمركب الهنيء، والثناء الطيب، والعلم النافع.

كما يدعو لنفسه بحسن الخاتمة، والأمن يوم الحشر والحساب، ودخول الجنة مع الأبرار، والوقاية من عذاب النار.

فهؤلاء سيعطيهم الله نصيبهم الذي دعوا به...

{ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [سورة البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

ومن كان يريد بأعماله ثواب الآخرة أعطاه الله إياه وضاعفه له، ومن كان يريد بأعماله متاع الدنيا وطيباتها أعطاه منه نصيبه، وحرّمه ثواب الآخرة، فهو لم يعمل لها ولم يطلبها.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } [سورة الشورى: ٢٠].

وفي يوم خروج قارون على قومه بزينة عظيمة وموكب فاخر، مع خدمه وحشمه، قال الذين يريدون زخرف الدنيا وزينتها: يا ليت لنا من الأموال والخدم والزينة مثلما أعطي قارون، لا شك أنه ذو حظ وافر وحياة سعيدة.

وقال لهم أهل العلم والتقوى: بنس ما قُلتُم، إنَّ ما عند الله مِنَ الثَّوَابِ والأَجْرِ فِي اليَوْمِ الآخِرِ أَفْضَلُ مِمَّا تَتَمَنَّوْنَهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، هَذَا لِمَنْ آمَنَ بِصِدْقِ وَعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يُؤْتَى ذَلِكَ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، الصَّابِرُونَ عَنِ المَعَاصِي والشَّهَوَاتِ.

وَفِي يَوْمِ زَيْنْتِهِ وَفَخْرِهِ وَطُغْيَانِهِ خَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ وَأَمْوَالِهِ الأَرْضِ، فَابْتَلَعْتَهُمْ، وَغَارَتْ بِهِمْ، فَمَا كَانَتْ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَنْصَارِهِ تَدْفَعُ عَنْهُ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، وَمَا كَانَ هُوَ قَادِرًا عَلَى الْإِنْتِصَارِ لِنَفْسِهِ.

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ رَأَوْا قَارُونََ فِي زَيْنْتِهِ وَتَمَنَّوْا أَنْ يَكُونُوا فِي مَكَانِهِ وَمَنْزِلَتِهِ بِالْأَمْسِ القَرِيبِ يَقُولُونَ، وَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا قَالُوا: عَجَبًا! إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُعْطِي المَالَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيَرْضَى عَنْهُمْ، وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَعْنِي أَنَّهُ يَكْرَهُهُمْ وَيُهِينُهُمْ، فَلَهُ الحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ، وَلَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِنَا وَتَجَاوُزُهُ عَنِ تَقْصِيرِنَا فِيمَا تَمَنَّيْنَا، لَخَسَفَ بِنَا الأَرْضَ كَمَا خَسَفَ بِقَارُونََ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ الكَافِرِينَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لَا يَسْعُدُونَ وَلَا يَفُوزُونَ؟

الآيات:

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زَيْنْتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونََ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }

{ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالثَّوَابَ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ }

{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ }

{ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئِنَّا اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئِنَّا لَا نُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }

[سورة القصص: ٧٩ - ٨٢].

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا سِوَى اسْتِمْتَاعٍ وَعِبَثٍ، تَنْقُضِي لَدُنْهَا بَعْدَ قَلِيلٍ، كاجْتِمَاعِ صِبْيَانٍ عَلَى لُعْبَةٍ، فَيَبْتَهَجُونَ بِهَا سَاعَةً ثُمَّ يَتَفَرَّقُونَ. وَالدَّارُ الآخِرَةُ فِيهَا الحَيَاةُ الحَقِيقِيَّةُ الدَّائِمَةُ، فَلَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا زَوَالَ عَنْهَا، وَلَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ لَمَا آثَرُوا عَلَيْهَا الحَيَاةَ الدُّنْيَا:

{ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [سورة العنكبوت: ٦٤].

أهل الآخرة

وهم الذين يفضلون الآخرة على الدنيا، فلا عيشَ إلا عيشُ الآخرة. والدنيا تَفْنَى.
قال الله سبحانه: { بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [سورة الأعلى: ١٦ - ١٧]
أي أنكم تُقَدِّمُونَ الدُّنْيَا على الآخرة، حُبًّا لِلْعَاجِلِ، وَجَهْلًا بِالْبَاقِي. وَالكَافِرُ يُعْرِضُ عَنِ الْآخِرَةِ كُفْرًا بِهَا، وَالْمُسْلِمُ إِذَا فَعَلَ فَلَا يَثَارُ مَعْصِيَةً وَغَلَبَةَ نَفْسٍ، وَقَبْلَ ذَلِكَ لَضَعْفٍ فِي الْإِيمَانِ.
مع أن تقديم الآخرة هو الذي فيه النَّفْعُ وَالْفَلَاحُ، فَنَعِيمُهَا أَفْضَلُ، وَأَبْقَى دَوَامًا وَعَافِيَةً، وَالدُّنْيَا شَهَوَاتُهَا مُكَدَّرَةٌ، وَلَذَاتُهَا فَانِيَةٌ، وَعَلَيْهَا حِسَابٌ وَتَبِعَاتٌ.

فَمَنْ ابْتَغَى الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَصَبَرَ عَلَى تَكَالِيفِ الدِّينِ الْحَقِّ، وَالتَّرَمَّ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ مُؤْمِنًا صَادِقًا فِي إِيمَانِهِ، مُصَدِّقًا بِالْحِسَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَسَيُتَابَ عَلَى عَمَلِهِ خَيْرًا، وَيَلْقَى جَزَاءً مَقْبُولًا، وَيُهْنَأُ بِذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرِيمِ:
{ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } [سورة الإسراء: ١٩].

وما كَسَبْتُمْ مِنْ مَالٍ أَيُّهَا النَّاسُ، أَوْ أَحْرَزْتُمْ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، فَهُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَزِينَةٌ مُؤَقَّتَةٌ مَصِيرُهَا الزَّوَالُ وَالْفَنَاءُ، وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، أَفْضَلُ وَأَبْقَى، فَالْبَاقِي خَيْرٌ مِنَ الْفَانِي، أَفَلَا تَتَفَهَّمُونَ ذَلِكَ وَتَتَدَبَّرُونَ مَا يَقُولُ لَكُمْ رَبُّكُمْ؟
وَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّعِيمَ الْمَقِيمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُمْ مُدْرِكُونَهُ لَا مُحَالَةَ، وَمَنْ مَتَّعَهُ فِي الدُّنْيَا بِمَالٍ فَإِنَّ وَنَعِيمٍ زَائِلٍ مِنَ الْكَافِرِينَ، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَنْعِصَاتِ وَالْهُمُومِ وَالْأَمْرَاضِ، ثُمَّ يُحْضَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْعَذَابِ؟:

{ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ }

{ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَا مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [سورة القصص: ٦١].

ذكر الله

ذكر الله تعالى من أجل الأعمال، وأفضلها، ولا يخلو منه حال المؤمن، في صباحه ومساءه. وقد أمر سبحانه بذكره، وأثنى على من يذكرونه، وبين ثوابه.

من ذلك قوله تعالى: { وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [سورة الجمعة: ١٠].
أي: أكثرُوا من ذكرِ الله، ولا تشغلتكم الدنيا عن ذلك؛ لتفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

إنهم المؤمنون، الذين لا يكلون ولا يملون من ذكرِ الله، ولا يغفلون عنه في عامة أوقاتهم، لمعرفة ما بآية الحق الذي ينبغي ألا ينسى، ولخشوعهم، واطمئنان قلوبهم بذكره، فيذكرونه قائمين، وقاعدين، ومضطجعين، ويتفكرون في عظمة خلقِ الله، الدالة على علمه وقدرته وعظمته وحكمته سبحانه، ويتأملون فيما خلق وبث في السموات والأرض من بديع صنعه، ويقولون: ربنا ما خلقت هذا الكون عبثاً وهزلاً، فأنت منزه عن النقائص والعيب والعبث، بل هو لحكم عظمة وأمر جليلة، ليعرف الناس ربهم العظيم، وليعرفوا بديع صنعه، وليعبدوه، وليجزى من آمن بالحق بالحسنى، ومن كفر وأساء بالشوء.

اللهم فإننا آمنا بك إلهاً واحداً وخالقاً عظيماً لا شريك لك، فأجزنا من النار، بهدایتنا وتوفيقنا إلى الأعمال الصالحة، وبرحمتك، ونعوذ بك أن نكون ممن يكفرون بك وبنعمتك:
{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [سورة آل عمران: ١٩١].

وحدّر الله سبحانه من الغفلة عن ذكره:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [سورة المنافقون: ٩].

أي: لا يشغلنكم أموالكم ومصالحكم الدنيوية ولا أولادكم عن الصلاة وسائر العبادات والطاعات، ومن يشغله التلهي بالدنيا عن ذكر الله وطاعته، فأولئك هم الخاسرون الخائبون، الذين باعوا الجليل الباقي بالقليل الفاني.

الدعاء

والمسلم يلتزم الدعاء في عبادته. والدعاء نفسه عبادة. وقد أمر الله تعالى بذلك ورسوله: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [سورة غافر: ٦٠].

وفي القرآن الكريم أدعية كثيرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولغيرهم، وفيها أن الله تعالى استجاب لهم، مثل دعوات إبراهيم وكرتيا وسليمان وموسى وعيسى ... عليهم الصلاة والسلام. من أمثلة ذلك دعوة يونس عليه السلام. فعندما دعا قومه وأبوا، وعدهم بالعذاب، مُتَّظِرًا أَنْ يَجَلَ بِهَمْ، ثُمَّ هَجَرَهُمْ وَهُوَ غَاضِبٌ عَلَيْهِمْ، قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ بِالْهَجْرَةِ، وَقَدْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِ بِعُقُوبَةٍ، وَلَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ، فَرَكِبَ الْبَحْرَ، وَابْتَلَعَهُ الْحَوْتَ، وَبَقِيَ فِي بَطْنِهِ وَلَمْ يَهْضِمْهُ، بِأَمْرِ اللَّهِ، فَدَعَا وَهُوَ فِي ظُلْمَةِ بَطْنِ الْحَوْتَ، وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةِ اللَّيْلِ، قَائِلًا: { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } : لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاكَ يَا رَبِّ، يَا وَاحِدًا يَا أَحَدًا، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بِهَجْرَتِي قَوْمِي دُونَ إِذْنٍ وَأَمْرٍ مِنْكَ، فَاعْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ.

فاستجاب الله دعاءه، وقبل توبته، وأخرجه من بطن الحوت، ونجاه من تلك الظلمات، وكذلك يستجيب دعاء المؤمنين في الكرب والشدائد إذا دعوه سبحانه واستغاثوا به. وخاصة بدعاء يونس عليه السلام، فقد صحَّ في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "دعوة ذي النون التي دعا بها في بطن الحوت: { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } لم يدع بها مسلم في كربةٍ إلا استجاب له". واللفظ للحاكم.

الآيتان:

{وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].
فالدعاء وسيلة ناجحة عند المسلم لبلوغ ما يصبو إليه، في السراء والضراء، وفي أوقات الكرب يدعو ويتضرع أكثر..

وهو يفوض أمره إلى الله، ويرضى بما قسمه له.

ولولا دعاء يونس عليه السلام، لما كشف عنه. قال سبحانه:

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [سورة الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]

أي: لو أنه لم يكن كثير التَّسْبِيحِ والصَّلَاةِ فِي الرَّخَاءِ، أو لو لم يُقَلِّ وهو فِي بطنِ الحوتِ: {إِلَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، لَبَقِيَ فِي بطنِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيًّا فِيهِ، أو قَبْرًا لَهُ.

كما يَسْتَجِيبُ اللهُ دُعَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَيَزِيدُهُمْ عَلَى مَا اسْتَحْتُوا مِنَ الثَّوَابِ مِنْ فَضْلِهِ الوَاسِعِ، وَالْكَافِرُونَ مُبْعَدُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي جَهَنَّمَ: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [سورة الشورى: ٢٦].

ومن أنواع الدعاء الجميل، والأجر الجزيل عليه، الدعاء لنفسه، ولوالديه، ولذريته، كما ورد في الآية الكريمة:

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} وجزاؤهم في هذا:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [سورة الأحقاف: ١٥ - ١٦].

أي: حتى إذا اشتدَّ ساعده، واستوى عقله، وبلغ أربعين سنة، فاكتمل قُوَّة وفهماً، دعا الله قائلاً: رَبِّ أَلْهِمْنِي وَوَقِّفْنِي لِأَشْكُرَ فَضْلَكَ وَنِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ وَعَلَى الْوَالِدِيَّ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَأَلْهِمْنِي وَمَنْ عَلَيَّ بِأَنْ أَقُومَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا وَتَرْضَى بِهَا، وَاجْعَلِ الْإِيمَانَ وَالصَّلَاحَ سَارِيًّا فِي نَسْلِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ لَا تَرْضَاهُ، وَإِنِّي مَنَّ أَسْلَمُوا نُفُوسَهُمْ إِلَيْكَ، وَأَخْلَصُوا قُلُوبَهُمْ لَكَ.

فهؤلاء نتقبل عنهم طاعاتهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها في الحياة الدنيا، ونغفر لهم سيئاتهم فلا نعاقبهم عليها، فهم من أصحاب الجنة، وعد الصديق الذي وعدهم الله به، وهو أن يتقبل منهم طاعتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم.

وقد أثنى الله على عباده الذين يدعون:

{ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [سورة السجدة: ١٦].

أي: يدعون خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَطَمَعًا فِي كَرَمِهِ وَجَنَّتِهِ.

الذكرى والعبرة

ومن تذكَّر واعتبر فقد تعقل وفاز.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يذكر الناس بالأمثال والقصاص ليتفكروا ويتدبروا ما فيها، ليعتبروا وينزجروا عن الباطل الذي هم عليه. قال سبحانه: { فَأَقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [سورة الأعراف: ١٧٦].

ولكن الكثير من البشر لا يعتبرون مما يجري في واقعهم، ولا مما يقرؤونه في التاريخ. مثل قوم هود، الذين أنكروا رسالة نبيهم، فقال لهم:

ولماذا تتعجبون وتستبعدون مجيء رسول إليكم من ربكم يكون من بينكم، يعرفكم وتعرفونه، فيحذركم بأسه إذا عرضتم عن أمره، وأصررتم على الكفر والعصيان. واذكروا فضل الله عليكم واشكروا نعمته، وقد جعلكم خلفاء ومُلوَكًا بعد قوم نوح، وقد أهلكهم لتكذيبهم رسول ربهم،

فلا تكونوا مثلهم. واشكروهُ كذلك أَنْ مَيَّرَكُم فِي أَجْسَادِكُمْ عَلَى النَّاسِ بِالطُّولِ وَالْقُوَّةِ، فَتَذَكَّرُوا نِعْمَهُ وَمِنَّهُ عَلَيْكُمْ وَكُونُوا لَهُ مِنَ الشَّاكِرِينَ، لتكونوا عنده مِنَ الْفَائِزِينَ: {أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة الأعراف: ٦٩].

التقوى

ومن اتقى الله فقد فازَ بِالْجَنَّةِ. فِعْبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، الَّذِينَ أَطَاعُوا رَبَّهُمْ وَاجْتَنَبُوا مَعَاصِيَهُ، فِي مَوْضِعٍ كَرِيمٍ، وَمَجْلِسٍ أَمِينٍ، قَدْ أَمِنُوا مِنَ الْحُزْنِ وَالْحَوْفِ. إِنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ عَالِيَاتٍ، وَأَنْهَارٍ جَارِيَاتٍ. يَلْبَسُونَ ثِيَابًا زَاهِيَةً جَمِيلَةً بَلُورٍ أَخْضَرَ، مِنْ دِيْبَاجٍ نَاعِمٍ رَقِيقٍ، وَآخَرَ كَثِيفٍ مُحْكَمٍ، إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ، مُتَقَابِلِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ، مُسْتَأْنِسِينَ مُتَرْفِّهِينَ. وَكَمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَقَدْ زَوَّجَهُمْ بِحُورٍ بَيضٍ حِسَانِ الْوُجُوهِ، جَمِيلَاتِ الْعُيُونِ. يَطْلُبُونَ فِيهَا مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الْفَوَاكِهِ، بِأَنْوَاعِهَا الْكَثِيرَةِ وَطُعُومِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَهُمْ آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ، يَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَا تَنْقَطِعُ عَنْهُمْ. لَا يَذُوقُونَ فِي الْجَنَّةِ الْمَوْتَ أَبَدًا، سِوَى الْمَوْتِ الْأُولَى فِي الدُّنْيَا، وَسَلَّمَهُمُ اللَّهُ وَمَنَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ النَّارِ. عَطَاءً وَتَفَضُّلاً مِّن رَّبِّكَ وَإِحْسَانًا مِنْهُ إِلَى الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَلَاحُ وَالنَّجَاحُ، وَالسَّعَادَةُ وَالْهَنَاءُ.

الآيات:

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ }

{ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }

{ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ }

{ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ }

{يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ}
{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}
{فَضلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

إنَّ للمؤمنين المخلصين فوزاً ونجاة.
بساتين فيها أنواع الشجر المثمر، والرياحين والأزهار، وأعناباً.
وحوراً نواهد، في سنٍّ واحدة.
وكأساً ممتلئة من الحمر اللذيذة التي لا تُسكر.
لا يسمعون في الجنة كلاماً لا فائدة منه، ولا كلاماً كذباً فيه إثم.
وهذا الذي أُثيبوا عليه تفضل من الله وإحسان منه لهم، وهو جزاء لما وعدوا به، كافياً وافياً.
الآيات:

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً}
{حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً}
{وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً}
{وَكَأْساً دِهَاقاً}
{لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَواً وَلَا كِذَاباً}
{جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً}
[سورة النبأ: ٣١ - ٣٦]

ولكن من هم المتقون الفائزون؟
عباد الله المتقون هم الذين آمنوا بالله وقاموا بالأعمال الصالحة، فهؤلاء لهم عند ربهم جنات جميلة، واسعة رائعة، تجري من تحتها جداول المياه والأنهار العذبة، ومنها ما يجري بالعسل واللبن وأنواع الأشربة، وفيها ما لم يره الإنسان وما لم يسمع به، مع حياة دائمة هنيئة، لا نعص فيها ولا انقطاع.

ولهم فيها أزواج مطهرة من الأذى الذي يعترى نساء الدنيا، وحور عِينٌ جميلاتٌ محبباتٌ إلى النفوس، وفوق كل ذلك رضوانُ الله، فلا سخطَ عليهم بعده أبداً:

{لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [سورة آل عمران: ١٥].

وعبادُ الله المؤمنون المتقون هم الذين يدعون ربهم ويقولون: اللهم إنا آمنا بك وبكتابك وبرسولك، فاغفر لنا ذنوبنا، وتجاوز عن سيئاتنا، فإنه لا يغفرها إلا أنت، ولا إله لنا غيرك، واصرف عنا عذاب النار:

{الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمنا فَاغْفِرْ لنا ذُنُوبنا وَقنا عَذابَ النَّارِ} [سورة آل عمران: ١٦].
وهم أيضاً عبادُ الله الصابرون، الذين يتبتون على التكليف الشرعية، فيطيعون الله فيما أمرهم، ويتكفون المحرمات. ويستسلمون لحكم الله ويرضون به، وإن ذلك من عزم الأمور.
والصادقون، الذين لا يرضون عن الحق بديلاً، ويعتزون به، ويقاتلون في سبيله.
والقانتون، الذين يقومون بواجب العبودية لربهم، ولا يركعون إلا له، ولا يسجدون لغيره.
والمنفقون، الذين لا ييخلون بما أنعم الله عليهم، وينفقون المساكين واليتامى وأهل الحاجة، فيعطوهم مما أعطاهم الله.

والمستغفرون، في وقت السحر وقد نام الناس، فيلتجؤون إلى الله ويطلبون منه العفو والغفران.
وجزاء هؤلاء جميعاً خيراً من كل ما زين للناس من الشهوات المستلذات في الدنيا، ورضوانُ الله عليهم أكبر من ذلك كله، فهو أجلُّ من كل شهوة، وخير من كل متاع، وأعظم من كل أمنيّة تُتمنى:

{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [سورة آل عمران: ١٧].

ومن صفات المتقين أهل الجنة أنهم ثابتون على البذل، يُنفقون في الشدة والرخاء، والمنشط والمكروه، لا يشغلهم أمر عن طاعة الله، والإنفاق فيما يرضيه، والإحسان إلى المحتاجين من خلقه.

وهم يكتُمون غيظهم وغضبهم عن الناس ولا يؤذوهم، ثم يعفون ويصفحون، ويحتسبون ذلك عند الله.

والذين أنفقوا، وكظموا غيظهم، وعفوا، فهم مُحْسِنُونَ، والله يُحِبُّ المحْسِنِينَ، الذين يَنْشُرُونَ الوَدَّ
والسَّمَاحَةَ والبِشْرَ بينَ الناسِ.

قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٤].

ومن صفات المتقين أيضاً أنهم إذا أذنبوا ذنباً، كبيراً كان أو صغيراً، لم يُصِرُّوا على ما فعلوا، ولم
يَفْتَحِرُوا بالمعصية، بل تذكروا الله وما أعدَّ للعاصيين من عقاب، وما وعدَ به التائبين المستغفرين
من العفو والمغفرة، فاستغفروا لذنوبهم، وتابوا إلى ربهم وأتابوا إليه، وهم يعلمون أنه لا يغفر
ذنوبهم إلا هو، ولا يرحمهم إلا هو، وأنَّ مَنْ تابَ تابَ اللهُ عليه، مادام مُعْتَرِفاً بذنبيه، نادماً غيرَ
مُصِرِّ عليه، عازماً على تركه.

قال عزَّ م قائل: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ
يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: ١٣٥].
وجزاء هؤلاء المتقين المتصفين بتلك الصفات الطيبة، هو العُفْرانُ والجنة: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ
مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [سورة آل عمران:
١٣٦].

وهذا النعيمُ المقيمُ هو ما وعدَ اللهُ به كُلَّ مؤمنٍ مُطِيعٍ، تائبٍ إلى الله، مُحَافِظٍ على أمره، أمينٍ
على عهده.

من خافَ اللهُ في سِرِّهِ وأطاعَهُ بالغيِّبِ حيثُ لا يراهُ أَحَدٌ إلا هو، ولَقِيَ اللهُ بقلْبٍ تائبٍ مُقْبِلٍ
على طاعته.

أيُّها المتقون، ادخلوا الجنةَ بِسَلَامَةٍ مِنَ الْعَذَابِ، وتَسْلِيمٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ، ذلكَ هوَ يَوْمُ
البقاءِ الذي لا مَوْتَ بَعْدَهُ، ولا تَحْوُلَ فِيهِ عَنِ الْجَنَّةِ إِلَى غَيْرِهَا.

لهم فيها ما يسألون ويختارون من أصنافِ الأطعمَةِ وأنواعِ الأَشْرِبَةِ، وعندنا مزيدٌ لأهلِ الجنةِ،
وهو أن يتجلى لهم الربُّ عزَّ وجلَّ، وينظروا إلى وجهه الكريم، وهو أَجَلُّ وأفضَلُ ما يُؤْتُونَهُ فيها.
الآيات:

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}

{ هَذَا مَا تُوعِدُونَ لِكُلِّ آوَابٍ حَفِيظٍ }
 { مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ }
 { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ }
 { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } .
 [سورة ق: ٣١ - ٣٥].

ومن صفاتهم التي حازوا بسببها جنات النعيم:
 أنهم كانوا في الدنيا محسنين في سلوكهم، صالحين في أعمالهم.
 ينامون قليلاً من الليل، فيصلون الله ويذكرونه ويدعونه أكثر الليل.
 وفي وقت السحر حيث يستجاب الدعاء، يستغفرون الله ويتوبون إليه من ذنوبهم، ليغفر لهم،
 ويرضى عنهم.

قال صاحب الظلال رحمه الله: فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام، المتوجهون إلى ربهم
 بالاستغفار والاسترحام، لا يطعمون الكرى إلا قليلاً، ولا يهجعون في ليلهم إلا يسيراً، يأنسون
 برهم في جوف الليل، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع...
 وفي أموالهم نصيب يخصونه للسائل المحتاج، والمحروم الذي ذهب ماله ولا يقدر على العمل، أو
 هو يعف فلا يسأل، وهو لا يملك شيئاً.

الآيات:

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }
 { آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ }
 { كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ }
 { وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }
 { وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ }
 [سورة الذاريات: ١٥ - ١٩].

والمتقون هم أولياء الله، وهؤلاء البشرى في الدنيا وفي الآخرة:

{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

{هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ}

[سورة يونس: ٦٢ - ٦٤].

والمؤمنون المتقون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لهم أجران:

فاخشوا الله أيها المؤمنون ولا تخالفوا أمره، واثبتوا على الإيمان بالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أرسله الله إليكم، يؤتكم أجرين من عنده: لإيمانكم بالرَّسُولِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وبخاتمهم محمد صلى الله عليهم أجمعين، ويُرِدُّكُمْ نُورًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيكُمْ تَمْشُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَغْفِرُ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ لَذُنُوبِ عِبَادِهِ التَّائِبِينَ، رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [سورة الحديد: ٢٨].

فالذين خافوا ربهم، وأحسنوا له الطاعة، وابتعدوا عما نهى، لهم في الجنة منازل عالية، بعضها فوق بعض، تجري من تحتها الأنهار، زيادةً في جمالها ونعيمها، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتقين، والله يقول الحق، ولا يُخْلِفُ وَعْدَهُ:

{لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} [سورة الزمر: ٢٠].

وأين هم؟ عند من؟

إنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ اتَّقَوْا عِقَابَ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ، فِي جَنَّاتٍ عَالِيَاتٍ، وَأَنْهَارٍ جَارِيَاتٍ، مِنْ مَّاءٍ، وَخَمْرٍ، وَلَبَنٍ، وَعَسَلٍ.

فِي دَارِ كَرَامَةٍ، وَمَكَانٍ مَرْضِيٍّ، وَمَجْلِسٍ حَقِّ لَا لَعْنُ فِيهِ وَلَا تَأْتِيمٍ، عِنْدَ مَلِكٍ قَادِرٍ عَظِيمٍ، لَا يُعْجِزُهُ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ}

{ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ }
[سورة القمر: ٥٤ - ٥٥].

ومن اتقى الله تعالى جعل له مخرجاً من همِّ والضيِّق، ويسرَّ أمره، وغفر ذنبه، وأعظم أجره، كما
في آياتٍ متتالياتٍ من سورة الطلاق:

{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ }

{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا }

{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا }

[سورة الطلاق: ٢ - ٥]

ومن عوائد التقوى على المجتمع البشري أنها تجلب لهم الخير والبركة.

ولو أنَّ أهل القرى والبلدان المهلكة آمنوا بالله ولم يشركوا به، وصدَّقوا الرُّسل بما جاؤوا به، وخافوا
الله فابتعدوا عمَّا نهى عنه، لبارك في أرزاقهم وأموالهم من السماء والأرض، من المطر والنبات،
فزاد فيها ونفع بها، ويسرَّ عليهم تحصيلها. ولكنهم عصوا الله وكذبوا رُسُلَه، فعاقبهم بالعذاب
والدمار جزاء كفرهم وعصيانهم.

قال سبحانه: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [سورة الأعراف: ٩٦].

الخشية

الذين يخشون ربهم هم الفائزون، فلهم البُشرى.

معبودُ الناسِ واحد، وهو اللهُ الواحدُ الأحد، وإنَّ تنوعتْ شرائعُ الأنبياء، فأسلموا وجوهكم إليه
أيها الناس، وأطيعوه، وأخلصوا له العبادة، ولا تُشركوا به شيئاً، وبشرِ المؤمنين الخاشعين لله
بالمثوبة الحسنى، الذين إذا ذكِرَ اللهُ عندهم خافتْ وخشعتْ له قلوبهم، والصَّابرين على ما

أصَابَهُمْ مِنَ الْبَلَايَا وَالْمِحَنِ وَالتَّكَالِيفِ، وَالْمَوَاضِبِينَ عَلَى الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا، فَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهَا شَيْءٌ، وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ مِمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ:
 {فِيَاهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}.
 {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [سورة الحج: ٣٤ - ٣٥].

لقد فازَ مَنْ خافَ رَبَّهُ:

ولمَن خافَ وَقوفَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ وَعَمِلَ صَالِحًا، جَنَّاتٍ، يَهْنَأُ فِيهِمَا وَيَنعَمُ، وَيَسعُدُ وَيَخَلُدُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "جَنَّاتٍ مِنْ فَضَّةٍ: آنِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ: آنِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا". رواه الشَّيْخَانُ.

والجَنَّاتِ كَبِيرَتَانِ وَسِيعَتَانِ، ذَوَاتَا أَشجارٍ وَأَغصانٍ نَضِرَةٍ حِسانٍ، وَثَمَارٍ ناضِجَةٍ شَهِيَّةٍ.
 فِي كُلِّ جَنَّةٍ مِنْهُمَا عَيْنٌ جاريةٌ مِنَ المائِ الزُّلالِ.

وَفِي كُلِّ جَنَّةٍ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ صِنْفانِ مِنَ الفاكِهةِ، مِنْ جَمِيعِ أَنْواعِها.
 مُضطَجِعِينَ فِي مَنازِلِهِمْ عَلَى فُرْشٍ بَطائِنُها مِنْ دِيباجٍ ثَخِينٍ جَمِيلٍ، وَظاهِرُها أَحسَنُ وَأَجْمَلُ، وَثَمارُ الجَنَّةِ قَريبَةٌ التَّنَاولِ مِنْهُم، مَتى ما شاؤُوا تَنَاولُوها.

وَفِي هَذِهِ الجَنانِ حُورٌ جَميلاتٌ، قَدِ اقْتَصَرَ نَظَرُهُنَّ عَلَى أَزْواجِهِنَّ لا يَرينَ أَحسَنَ مِنْهُم فِي الجَنَّةِ، وَهُنَّ أَبكارٌ، لَمْ يَطأهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الإنسِ وَالجِنِّ قَبْلَ أَزْواجِهِنَّ.

كَأَنَّهنَّ الياقوتُ فِي صَفائِهِ، وَالمرجانُ فِي حُسْنِهِ وَعَجائِبِ وَصْفِهِ.

أليسَ جِزاءُ مَنْ أَحسَنَ العَمَلَ فِي الدُّنيا أَنْ يُحسَنَ إِلَيْهِ فِي الآخِرَةِ؟

فَبأَيِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ رَبِّكُمَا بَرحَدانِ أَيُّها التَّقْلانِ، وَقَدِ وُفِّيَ بَعهدِهِ مَعَكُمَا، وَزادَ فِي إِحسانِهِ إِلَيْكُمَا، فَضاعَفَ مِنْ أَجورِكُمَا، وَأَثابَكُمَا خَيراً مِمَّا عَمِلْتُمَا فِي الدُّنيا؟

الآيات:

{وَلِمَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}

{فَبأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ}

{ذَوَاتَا أَفنانِ}

{ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 { فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ }
 { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 { فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ }
 { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 { مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ }
 { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 { فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ }
 { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 { كَأَنَّھُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ }
 { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ }
 { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
 [سورة الرحمن: ٤٦ - ٦١].

ومختصره:

مَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ، وَزَجَرَ نَفْسَهُ وَتَهَاوَى عَنِ الْهَوَى وَالْمَعَاصِي، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَوَطَّنَهَا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ مَصِيرُهُ وَمَسْكَنُهُ.

{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }

{ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }

[سورة النازعات: ٤٠ - ٤١]

رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ مُخْلِصُونَ، هُمْ عُمَّارُ بَيْوتِهِ، فَلَا تَشْغَلُهُمُ التِّجَارَةُ بِأَرْبَاحِهَا، وَلَا يَبِيعُ وَلَا يَشْرَاءُ عَنِ التَّسْبِيحِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَطَاعَةِ رَبِّهِمْ وَمَحَبَّتِهِ، وَعَنِ الصَّلَاةِ فِي مَوَاقِيتِهَا، وَإِعْطَاءِ حُقُوقِ الْفُقَرَاءِ مِنْ

أموالهم، فالطاعة مَقْصِدُهُمْ أينما كانوا، يَخَافُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ والجزاء، حيثُ تَضَطَّرَبُ الْقُلُوبُ والأبصار، وتَتَغَيَّرُ مِنَ الْفَزَعِ وَمِنْ شِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وأحواله.

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَيُعْطِيَهُمْ مِنْ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ زِيَادَةً عَمَّا يَسْتَحِقُّونَ، وَاللَّهُ كَرِيمٌ

وَاسِعُ الْفَضْلِ، يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْأَجْرِ بِلَا عَدٍّ وَلَا كَيْلٍ، مَا لَا تَبْلُغُهُ أُمْنِيَّتُهُ:

{ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ }

{ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [سورة النور: ٣٨].

والسابقون إلى الخيرات هم الذين يخشون ربهم:

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ حَذِرُونَ وَجَلُونَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَهْبَةً مِنْهُ، مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ،

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بآيَاتِ اللَّهِ الْمُنزَلَةِ، وَبِشَوَاهِدِ الْكُونَ الْمُعْجِزَةِ، الدالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَعَظَمَتِهِ،

وَالَّذِينَ لَا يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ شَيْئًا، بَلْ يُوَحِّدُونَهُ وَيُخْلِصُونَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ،

وَالَّذِينَ يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَقُلُوبُهُمْ خَائِفَةٌ، خَشْيَةً أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ صَدَقَاتُهُمْ، وَخَوْفًا مِنْ أَنَّ ذَلِكَ

قَدْ لَا يُجِيبُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، عِنْدَمَا يُبْعَثُونَ إِلَيْهِ وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ،

أُولَئِكَ الْمُتَصِفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ، يُبَادِرُونَ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهُمْ سَابِقُونَ إِلَى نَيْلِهَا وَالظَّفْرِ بِهَا.

الآيات:

{ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ }

{ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ }

{ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ }

{ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ }

{ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [سورة المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

إِنَّ الَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ لَوْ لَمْ يَرَوْهُ، وَيَتَّبِعُونَ عَمَّا حَرَّمَ طَاعَةً لَهُ وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ لَوْ كَثُرَتْ، وَيُجَازِيهِم بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } [سورة الملك: ١٢].

التوبة

والتائبُ يَفُورُ إذا صدقَ في توبته.

وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يبشّر المؤمنين الصالحين بالسّلام والأمان، فقد أوجب الله على نفسه المقدّسة، تفضلاً منه وإحساناً، أن من اقترفَ منهم ذنباً وهو جاهل، ثمّ استغفرَ منه وتابَ إلى الله، وأقلعَ عنه وعزمَ على عدم العودِ إليه، فإنّه سبحانه يُغْفِرُ له، ويرحمه برحمته الواسعة:

{ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [سورة الأنعام: ٥٤].

وذكر الله في آيةٍ أخرى أنه كثيرُ الغفرانِ للذُنُوبِ مَنْ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكِ وَمَعْصِيَةٍ، وآمَنَ بما يَجِبُ الإيمانُ به، وصدّقته جوارحه بأداء الفرائض والأعمال الموافقة للشّرع، ولزم الاستقامة حتّى يموت:

{ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى } [سورة طه: ٨٢].

وتوفيقُ الله عبده للتوبة حتى يغفرَ له فضلٌ عظيمٌ منه. ولنا عبرةٌ فيما حدثَ لبعض الصحابة رضوانُ الله عليهم في حادثِ الإفك، فقالَ اللهُ تعالى:

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [سورة النور: ٢١].

أي: ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته بكم، ومنها بيانُ عُقُوبَةِ مَنْ يُشِيعُ الفاحِشَةَ في المجتمع، ثمّ توفيقكم للتوبة، لما طهرَ أحدًا منكم من الذُنُوبِ والأخلاقِ الدنيئةِ أبداً، ولكنَّ اللهُ يُطَهِّرُ مَنْ

شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، بِتَسْدِيدِهِمْ وَهَدَايَتِهِمْ لِلتَّوْبَةِ، ثُمَّ قَبُولِهَا مِنْهُمْ. وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ عِبَادِهِ، عَلِيمٌ
بِنِّيَاتِهِمْ فِي الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْبَةِ.

وَمَنْ تَابَ فَقَدْ أَفْلَحَ، فَاتْرَكُوا الْفَوَاحِشَ وَالْأَخْلَاقَ الرَّذِيلَةَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَتَوَبُوا إِلَى اللَّهِ مِمَّا قَصَرْتُمْ
فِيهِ، لَتَفُوزُوا بِرِضَى اللَّهِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ:
{ وَتَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [سورة النور: ٣١].

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَدْعُو إِلَى التَّنَافُسِ فِي عَمَلِ الْخَيْرَاتِ، وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ وَيَعْفِرُ بِهِ
الذُّنُوبَ، وَإِلَى جَنَّةٍ عَظِيمَةٍ وَاسِعَةٍ، عَرَضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ، هُيِّئَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ وَعَطَاءٌ مِنْهُ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ فَضْلُهُ
عَظِيمٌ، وَخَيْرُهُ عَمِيمٌ:

{ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [سورة الحديد: ٢١].

وَمَنْ تَابَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَأَحْسَنَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَنْتَظِرُهُ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَتَوَبُوا لِيَفُوزُوا بِالْجَنَّةِ:
أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، تَوَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ تَوْبَةً صَادِقَةً جَازِمَةً، تَنْصَحُونَ بِهَا
أَنْفُسَكُمْ، فَتَنْدَمُونَ عَلَى أَخْطَائِكُمْ، وَتَعَزِمُونَ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا، عَسَى أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ بِذَلِكَ
سَيِّئَاتِكُمْ، وَيُكْرِمَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ وَاسِعَاتٍ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الْكَثِيرَةُ، يَوْمَ
لَا يُذِلُّ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ كَمَا يُذِلُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يُعَذِّبُهُمْ بِدُخُولِ النَّارِ، بَلْ يُكْرِمُهُمْ بِالنَّعِيمِ
الْمَقِيمِ، نُورُهُمْ يَمْشِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ إِذَا طُفِيَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ: اللَّهُمَّ أُمَّمَ لَنَا
النُّورَ الَّذِي أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْنَا، وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كُلَّهَا، إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُجْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أُمَّمَ لَنَا نُورًا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [سورة التحريم: ٨].

وبالاستغفار والتوبة تُفْتَحُ آفاقُ حياتيةٍ أمامَ الناسِ، كما قالَ نوحٌ عليه السلامُ لقومه:

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}

{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا}

{وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا} [سورة نوح: ١٠ - ١٢].

أي: انتهوا عن الكُفْرِ والمعاصي، وارجعوا إلى الله وثوبوا إليه، فإنه كثيرُ المغفرةِ لذُنُوبِ عبادهِ المؤمنينَ التائبين.

فإن تَفَعَلُوا ذلكَ يُنْعِمَ عليكم ويُنْزِلُ عليكم مطرًا كثيرًا مُتَوَاصِلًا،

ويُكثِرُ من رِزْقِهِ لكم، وَيَهَبُكم أولادًا كَثْرًا، وَيُبَارِكُ في زُرُوعِكُمْ وَثَمَارِكُمْ، وَيَجْعَلُ لكم فيها أَنْهَارًا جاريةً.

الأخوة في الله

الأصدقاء المتحابون يكون بعضهم أعداء لبعض في يوم القيامة، إلا من كانت محبتهم في طاعة الله، فإنها باقية، ومثاب عليها.

لا خوف عليهم يومئذ ولا بأس، فلا تجزعوا مما ترونه من أهوال يوم القيامة أيها المتحابون في الله، ولا تهتموا ولا تعتموا، فإن أمامكم ما يسركم ويفرح قلوبكم.

الذين آمنوا بالله وآياته كلها، وكانوا مستسلمين لأمر الله ورؤيته، منقادين للشرع وأحكامه.

ادخلوا الجنة أنتم وزوجاتكم المؤمنات، تنعمون فيها وتُسرون.

يُطافُ على أهل الجنة بأوانٍ كقصاصٍ من ذهب، وأكواب، وفيها ما ترغب فيه الأنفس وتشتهيه من أنواع المأكول والمشرب، وما تستلذُّه الأعين من الجمال وحسن المنظر، وأنتم ما كنون فيها أبدًا.

وتلك هي الجنة التي أُعطيتموها، واقتسمتم منازلها بما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا.

قال ابن كثير رحمه الله: أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات يُنالُ تفاوئها بحسب الأعمال الصالحات.

لكم فيها فواكه كثيرة، بأنواعها وأصنافها المتعددة، وألوانها وطعومها المتنوعة، تأكلون منها متى ما أردتم.

الآيات:

{ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ }

{ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }

{ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ }

{ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ }

{ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

{ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

{ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ }

[سورة الزخرف: ٦٧ - ٧٣].

الدعوة

ومن سلك طريق الدعوة فقد اختار أفضل مهنة في الحياة؛ لأنها وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي ذلك الثواب العظيم، والفوز والنجاة، إن شاء الله.

فليس هناك أحسن ممن دعا إلى دين الله وتوحيده وطاعته، مع الالتزام بالعمل الصالح الموافق للدين، والإخلاص فيه لله وحده، واعتز بالإسلامه وعمل به وأعلنه مُفتخراً به:

{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [سورة فصلت:

٣٣].

العلم

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِطَاعَتِهِمْ وَاسْتِجَابَتِهِمْ لِأَدَبِ الْإِسْلَامِ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِفَضْلِ عِلْمِهِمْ
وَسَابِقَتِهِمْ وَامْتِنَالِهِمْ أَمَرَ اللَّهُ، دَرَجَاتٍ كَبِيرَةً، تَكْرِيماً لَهُمْ.
وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِآدَابِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَتَعْلِيمِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا. وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بَأَحْوَالِهِمْ، خَبِيرٌ بِمَا يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ:
{ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [سورة المجادلة:
. [١١].

والعلم الحقيقي في الإسلام هو ما كان مقروناً بالخشية، ومن لم يخش الله في علمه فإنه يُخشى
عليه الضلال.

قال الله سبحانه وتعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [سورة فاطر: ٢٨]
أي: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ حَقَّ الْخَشْيَةِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ، الَّذِينَ يُدِيمُونَ التَّفَكُّرَ فِي خَلْقِهِ وَبَدِيعِ
صُنْعِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ عَبَثًا.
يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية".
يعني أن العالم الحقيقي هو الذي يخاف الله ويتقّيه، فمن لم يكن كذلك فإن علمه غير مقبول
عنده.

الحجة والبرهان والجواب المسكت

من حوار نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه المشركين - وتبدو فيه حججه وأدلتها، وانتصاره
عليهم - قوله لأبيه آزر وقومه: ما هذه الأصنام التي تُلازمون عبادتها؟
قالوا له: هكذا وجدنا آباءنا وأجدادنا يعبدونها، ونحن نتبعهم ونقلدهم في ذلك.
قال لهم: إنكم أنتم وآباؤكم زائعون منحرفون، على غير هدايةٍ ودليلٍ تعبدون.

قالوا له مُتَعَجِّبِينَ مِنْ مَخْطِئِهِ إِيَّاهُمْ: أَتَقُولُ ذَلِكَ جَادًّا أَمْ لَعِبًا وَهَزْلًا، فَإِنَّا لَمْ نَرِ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى
أَهْلَتِنَا، وَعَابَ عَلَيْنَا عِبَادَتَهُمْ قَبْلَكَ؟

قَالَ لَهُمْ مُصَحِّحًا وَمُنَبِّهًا: إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ أَحْجَارٌ عَمِلْتُمُوهَا بِأَيْدِيكُمْ ثُمَّ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا آلِهَةٌ،
فَلَيْسَ فِيهَا أَيُّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ، إِنَّمَا خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ هُوَ اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ، الَّذِي خَلَقَهُنَّ وَمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالنَّبَاتِ وَالْجَمَادِ، وَأَنْتُمْ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ
الْمَخْلُوقَةِ بِأَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنََّّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا يُعْبَدُ سِوَاهُ.

وَوَاللَّهِ لَأَمْكُرَنَّ بِأَصْنَامِكُمْ وَأَجْتَهِدَنَّ فِي تَحْطِيمِهَا بَعْدَ أَنْ تَنْتَهَوْا مِنْ عِبَادَتِهَا وَتَمْضُوا.
فَحَطَّمَهَا وَجَعَلَهَا قِطْعًا، إِلَّا الصَّنَمَ الْكَبِيرَ بَيْنَهَا، لَمْ يَكْسِرْهُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ عَمَّنْ
دَاهَمَ أَهْلَتَهُمْ فَكَسَرَهَا وَأَذَلَّهَا هَكَذَا، وَكَيْفَ لَمْ يُدَافِعْ عَنْهَا وَهُوَ كَبِيرُهَا؟! ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ
وَيُدْرِكُونَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ وَهْمٍ وَخَطَأٍ.

وَحِينَ رَجَعُوا إِلَى أَصْنَامِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى وَرَأَوْهَا مَكْسُورَةً، تَنَادَوْا قَائِلِينَ: مَنْ الَّذِي أَهَانَ أَهْلَتَنَا
وَفَعَلَ بِهَا كُلَّ هَذَا؟ لَا شَكَّ أَنََّّهُ ظَالِمٌ مُتَعَدِّ، قَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعِقَابٍ كَبِيرٍ.

قَالَ بَعْضُ مَنْ سَمِعَ إِبْرَاهِيمَ يَتَعَرَّضُ لَهَا وَيُهْدِدُ بِكَسْرِهَا: سَمِعْنَا شَابًّا يَعِيبُهَا يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.

قَالُوا: فَأَحْضِرُوهُ لِيَرَاهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَيَشْهَدُوا مَا تُوقِعُ بِهِ مِنْ عِقَابٍ.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ - وَكَانَ هَذَا مَقْصُودَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالُوا لَهُ: أَنْتَ الَّذِي
حَطَّمْتَ أَهْلَتَنَا وَكَسَرْتَهَا هَكَذَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟

قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بَلِ الَّذِي كَسَرَهَا هُوَ هَذَا الصَّنَمُ الْكَبِيرُ - الَّذِي تَرَكْتُمْهُ وَلَمْ يَكْسِرْهُ -
فَأَسْأَلُوهُمْ إِذَا كَانَ بِالْإِمْكَانِ أَنْ يَنْطِقُوا وَيَدُلُّوكُمْ عَلَيْهِ.

فَفُوجِئُوا بِهَذَا الْجَوَابِ، بَلْ أَفْجَمُوا وَلَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ. وَعِنْدَمَا تَدَبَّرُوا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ،
وَأَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ الْمَزْعُومَةَ مَا هِيَ سِوَى أَحْجَارٍ صَمَاءَ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْكَلامِ، وَلَا
الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا، قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: بَلْ أَنْتُمْ الْمَخْطِئُونَ بِعِبَادَةِ مَنْ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَفْهَمُ، وَلَا
يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

ثُمَّ أَطْرَقُوا رُؤُوسَهُمْ وَهُمْ فِي حَيِيَّةٍ وَحَيْرَةٍ، وَقَالُوا فِي عِنَادِ الْكَافِرِ وَمَنْطِقِ الْمَهْزُومِ: لَقَدْ عَلِمْتَ يَا
إِبْرَاهِيمُ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ لَا تَتَكَلَّمُ، وَأَنْتَا كُنَّا نَعْبُدُهَا مَعَ عِلْمِنَا بِذَلِكَ!

قال لهم عليه السلام: إذا كانت هذه الأحجار لا تنطق، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها، فكيف تُسمونها آلهة، وكيف تعبدونها من دون الله، وهي لا تنفعكم بشيء، ولا تضركم بشيء؟!!

تُبًّا لكم على إضراركم وتشبُّثكم بالباطل، وعبادتكم لهذه الجمادات التي تدعون ألوهيتها وقد صنعتموها بأيديكم، وهي غير قادرة على نفعكم ولا الإضرار بكم، أفلا تتفكرون فيما أنتم فيه من ضلالٍ وجَهْلٍ، وتندبرون فيمن يستحقُّ العبادة حقًّا؟
ولما انقطعت حجَّتُهم، وضاعت حيلتُهم، لجؤوا إلى الظلم والتعسف، وقالوا: أحرِّقوه بالنار، حتى لا يجرؤ أحدٌ بعده أن يقول مقولته في آلهتنا، فانقموا لها إذا أردتم أن تنصروها حقًّا.
وعندما ألقوه في النار، قال الله لها: يا نار! لا تحرقيه، بل كوني له بردًا وسلامًا وعافية.
وأرادوا أن يمكروا به فيحرقوه ليُطفئوا بذلك نور الحقِّ، ولكنَّ الله هو الذي مكر بهم وجعلهم خائبين مغلوبين.

(تفسير للآيات ٥١ - ٧٠ من سورة الأنبياء)

وملك متكبِّر متعنّت، أعطاه الله من المال ما أعطاه، ثم جاء يُجادل نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام ويُخاصمه في ربه، وذلك لما رأى نفسه مختصًّا بمالٍ ومُلكٍ ليس عند غيره، ويأمر وينهى كما يشاء فيسمع ويُطاع، فقال له إبراهيم عليه السلام، ليريه حقيقة نفسه وضعف قوته وإرادته أمام ربه الخالق: إنَّ الله يُحيي ويميت، وإنَّ ما يرى من ذلك في عالم الإنسان والحيوان دليلٌ على وجوده، وعلى تصرفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، فهي لا تحدث بنفسها، بل لا بدَّ لها من مُوجدٍ ومن مدبِّر، وهو الذي يسلب حياة من شاء متى شاء، بأسبابٍ ظاهرة أو باطنة، معروفةٍ أو غير معروفة.

فالإحياء والإماتة من صفات هذا الإله الذي لا يكون أحدٌ مثله، ولا يستطيع أحدٌ أن يقوم بما يقوم هو به، وهو الذي أعبدُه وأدعوك وأدعو الناس إلى الاستسلام له وعبادته، فهو الخالق، والحيي والمميت، الذي بيده كلُّ شيء في هذا الكون، فلا إله إلا هو، ولا عبادة إلا له.
واغترَّ هذا الملك المتكبِّر بما يملك من قوَى بشريَّة وسيطرة، فتمادى في غيِّه وقال لإبراهيم: أنا أيضاً أُحيي وأميت!

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ أُوتِيَ بِرَجُلَيْنِ اسْتَحَقَّا الْقَتْلَ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ أَحَدِهِمَا وَعَفَا عَنِ الْآخَرِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ
 أَمَاتَ الْأَوَّلَ وَأَحْيَا الْآخَرَ، فَكَانَ هَذَا مَفْهُومَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ عِنْدَهُ!
 ولم يُرِدْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُطِيلَ مَعَهُ الْجِدَالَ وَهُوَ بِهَذِهِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُتَكَبِّرَةِ الْمُنْكَرَةِ، فَأَرَادَ أَنْ
 يُفْهِمَهُ أَنَّ الْإِلَهَ الْمَقْصُودَ بِعِبَادَتِهِ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكُونِ كُلِّهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْقَوَانِينَ الْكُونِيَّةَ الْمَوْجُودَةَ
 هِيَ مِنْ صُنْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ تَغْيِيرَ قَانُونٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْكَثِيرَةِ الْمَبْثُوثَةِ فِي الْكُونِ،
 بِمَا أَنَّهُ يَدَّعِي أَنَّهُ هُوَ الْآخَرُ فِيهِ صِفَةُ الرِّيْبِيَّةِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الشَّمْسَ تُشْرِقُ مِنَ الشَّرْقِ،
 فَأَمُرْهَا أَنْتَ لِتُشْرِقَ مِنَ الْغَرْبِ!

فَتَحَيَّرَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَسَكَتَ، وَعَجَزَ عَنِ الْكَلَامِ، وَصُدِمَ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ الدَامِغَةِ الَّتِي لَمْ تَدَعْ لَهُ مِنْطَقًا
 يُدَافِعُ بِهِ عَنِ نَفْسِهِ. لَكِنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ بِالْأَمْرِ وَلَمْ يُؤْمِنْ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرِغَبْ فِي الْحَقِّ، وَلَمْ يَتَلَمَّسْ طَرِيقَ
 الْهُدَايَةِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَيَخْتَارُونَ طَرِيقَ الضَّلَالِ وَالْعِنَادِ، عَلَى
 الرَّغْمِ مِنْ وَضُوحِ الْحُجَّةِ ضِدَّهُمْ.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
 قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ
 الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [سورة البقرة: ٢٥٨].

ومن الحوارات التي دارت بين فرعون وموسى عليه السلام، وفيها تبدو حجته القويّة وانتصاره
 الظاهر:

قال فرعون لموسى، وقد أوحى الله إليه، بعد إيابه من مدين، ودخل إلى فرعون في قصره
 يدعوه:

{ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [سورة الشعراء: ١٨].

{ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ }

أي: قَتَلْتَ رَجُلًا مِنَّا، فَجَحَدْتَ بِفَعَلْتِكَ تِلْكَ نِعْمَتِنَا عَلَيْكَ؟

{ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ }

قال موسى عليه السلام: لَقِيَ فَعَلْتُ ذَلِكَ حِينَئِذٍ وَأَنَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ رَسُولًا.

{فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء: ٢١].

أي: خرجت هاربًا منكم إلى مدين لما خفت انتقامكم مني، فوهبني الله النبوة وأرسلني إليكم. {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}؟ وما ذكرت من تربيتي في بيتك عندما كنت صبيًا، هي نعمة في ظاهرها، ولكنها جاءت من ظلمك لبني إسرائيل وقتلك أبناءهم، ولولا ذلك لتربيت في بيت والدي لا بيتك. ويستمر الحوار حتى الآية (٣١) من سورة الشعراء، وبيانها:

قال له فرعون جاحدًا متمردًا: وأي شيء يكون رب العالمين؟ وكان يدعي أنه هو الرب. قال موسى عليه السلام: هو خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات، وهو مالِكهما ومدبّر أمرهما والمتصرّف فيهما كما يشاء، لا يعينه ولا يشركه أحد في ذلك، إن كنتم من أهل اليقين والإيمان. قال فرعون لمن حوله من أشرف قومه: ألا تعجبون مما تسمعون، من ادعاء موسى أن هناك إلهًا غيري؟

قال موسى عليه السلام: هو الله الذي خلقكم وخلق آباءكم الأولين. قال فرعون مُنقِرًا قومه منه: إن هذا الذي يدعي أنه مرسل إليكم لا عقل له، فهو يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته.

قال موسى عليه السلام مُكملًا حديثه: هو الله رب المشرق الذي تشرق منه الشمس، ورب المغرب الذي تغرب فيه الشمس، والله هو الذي أنشأهما هكذا، في نظام كوني رائع، ودقة في الحساب متناهية، ولا أحد يستطيع أن يتصرّف فيهما ويُغيّر من هيئاتهما، ومن ادعى أنه إله، فليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا. هذا لمن تفكّر وعقل ما يقال له.

لم يعد يتحمل فرعون هذا الحوار المدعوم بالحجة والدليل، فلجأ إلى التهديد بالقوة وقال: إذا جعلت لنفسك إلهًا غيري فسوف أحبسك. ويحكى من سجن فرعون ما لا يوصف! فقال موسى عليه السلام وهو ما يزال يريد أن يقنعه بالحوار والدليل: فما تقول إذا أتيتك برهان قاطع ومُعجزة باهرة تدل على صدق نبوتي؟

قال له فرعون: فهات حجتك إن كنت صادقًا في دعواك...

وحوارٍ نبيّ الله موسى مع فرعونَ وآله معروف، وفيه غلبته عليه، وانتصاره الساحق على سحرته في التحديّ الأخير بينه وبينهم.

وبدايته قولُ نبيّ الله موسى لفرعونَ المتكبر: إِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ، سَيِّدِهِمْ وَمَالِكِ أَمْرِهِمْ.

جديرٌ بي، وواجبٌ عليّ، ألا أُخبرَ عنِ الله إلاّ الحقّ والصّدق، وقد جئتكم من عنده بمُعجزةٍ ظاهرةٍ لتكونَ دليلاً على صدقي، فدع بني إسرائيل يأتوا معي إلى بيت المقدس. وكان فرعونُ قد استعبدَهم واستعملَهم في الأعمالِ الشاقّة.

قال فرعون: يا موسى، إن كنت جئت بمُعجزةٍ حقاً، فأظهرها لنا، إن كنت صادقاً في دعواك. فألقى موسى عصاهُ في الأرض، فإذا هي حيّةٌ عظيمة، ظاهرةٌ للعيان.

وأخرج يدهُ من جيبه (وهو فتحةُ القميص من أعلاه)، فإذا هي بيضاء ناصعةٌ تشعُّ نوراً، لمن ينظرُ إليها.

قال السادةُ الكبراءُ من قوم فرعون: إن موسى ساحرٌ متمكّنٌ من علم السحر.

يريدُ أن يُخرِجكم - يا شعب مصر - من دياركم. فبماذا تُشيرون في أمره أيُّها السادة؟

قال له قاداته ومُستشاروه: أجزه وأنظره وأخاه، وابعث إلى أقاليم مصر رجالاً من الشرطة جامعين،

يجمعوا السحرة المهرة ويأتوك بهم.

وجاء السحرة واجتمعوا عند فرعون، وقالوا له: أيكون لنا عطاءٌ إذا غلبنا موسى بسحرنا؟

قال لهم فرعون: نعم، لكم الأجر، وستكونون في منزلةٍ رفيعةٍ عندي، ومن الرجال المقربين إليّ. واجتمعوا في الساحة المقررة للمناظرة والتحديّ، وقال السحرة لموسى عليه السلام: إمّا أن تُلقني عصاك أولاً، وإمّا أن نُلقني جبالنا وعصينا قبلك.

قال لهم موسى: بل ألقوا أنتم أولاً. ويكون هذا أوقع في نفوس المشاهدين، حيث يرون عمل السحرة أولاً، ثم التحديّ والنتيجة من قبل موسى عليه السلام. فلما ألقوا ما عندهم، خيلوا عملهم إلى الأعين على خلاف الحقيقة، وأفزعوهم فرعاً شديداً، وقد أبدوا سحراً رهيباً، كانت عصيهم وجبالهم تبدو وكأنها حيّات وأفاعي كبيرة تتحرك!

وعند ذلك أوحينا إلى موسى: أن ألقِ عصاك. فألقاها في الأرض، فإذا هي تتحوّل إلى ثعبانٍ كبيرٍ ضخمٍ، تبتلعُ جميعَ ما أبدى السحرة، ممّا موهوا به وأوهموا المشاهدين أنّها حيّاتٌ وأفاعيٌّ، التي ما كانت سوى سحر، خيّل للناس أنّها حقيقة!

فظهر الحقّ، وتبيّن أنّ ما كان من شأن موسى معجزةٌ لا يقدر على أن يأتي بها إنسانٌ من عنده، وظهر بطلان ما كان عليه السحرة، وقالوا: لو كان ما يصنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصيتنا، فلمّا فُقدت علمنا أنّ ذلك من أمر الله.

فغلب فرعون وقومه في ذلك الحشد الكبير وهزموا، ورجعوا إلى المدينة أذلةً مقهورين.

أمّا السحرة فقد بهرهم الحقّ، ولم يتمالكوا إلا أن خرّوا لله ساجدين، وكانوا من سرعة ما سجدوا كأنّ أحداً دفعهم وألقاهم للسُّجود!

وقالوا: آمنا بربّ العالمين، مالِكهم وسيّدهم والمتصرّف في أمرهم.

ربّ موسى وهارون، وليس هو فرعون مُدّعي الربوبية، فما هو إلا عبد.

فقال لهم فرعون، وقد علم أنّ لا مجال لبقاء ملكه بالحوار والعقل والمحاججة: آمنتُم بربّ موسى وهارون قبل أن أسمح لكم بذلك؟! إنّ هذا الصنيع الذي قمتم به، ما هو إلا مؤامرةٌ وحيلةٌ كانت عن سابق تشاور بينكم وبين موسى في المدينة قبل أن تأتوا إلى هذا الميدان، لتخرجوا منها القبط، وتبقى لكم ولبنّي إسرائيل، فسوف ترون عاقبة ما أفعّل بكم.

سأقطع من كلّ واحدٍ منكم يده اليمنى ورجله اليسرى، ثمّ أصلبكم على جذوع النخل جميعاً، لتموتوا جوعاً وعطشاً، عُقوبةً لإيمانكم.

قال السحرة - وقد آمنوا - : نحن عائدون إلى رحمة الله وثوابه، ومصيرك ومصيرنا إلى الله يوم القيامة، فيحكّم بيننا، ولا نبالي بوعيدك، وعذابه أشدّ من عذابك.

وما تُنكر منّا سوى إيماننا بآيات ربّنا ومعجزاته لما أتتنا. اللهم صبرنا على التمسك بدينك والثبات عليه، وتوقّفنا على الإسلام، مُتّبعين نبيك موسى عليه السّلام.

(تفسير الآيات ١٠٤ - ١٢٦ من سورة الأعراف).

من قوله تعالى: { وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }، إلى قوله تعالى: { وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ }.

وعندما أخبر رسول ملك مصر الملك بتأويل رؤياه كما عبّرهُ يوسفُ عليه السّلام، تعجّب منه ومن علمه، وأراد أن يقف على خبره، فقال: ائتوني بيوسف.

فلما ذهب السّفيرُ إليه ليحضّره، كما أمرهُ الملك، لقي وقفةً عند يوسف، فقد أبى أن يصحبه، وفضل أن يبقى في السّجن حتّى تَبْرأ ساحتُه، ليخرج طاهراً مُبرّأً من كلّ شُبْهة، وأنّ كلّ هذه السّنوات التي قضّاها في السّجن كانت ظلماً في حقّه، فقال لرسول الملك: ارجع إلى سيّدك واسأله عن خبر النّساء اللّواتي جرّحن أيديهنّ، وحقّيقَة أمرهنّ في هذا. والله أعلم بمكرهنّ وما صنعنّه بحقّي، ولسوف يُجازيهنّ على افترائهنّ.

فأحضّرنّ الملك بين يديه وقال لهنّ: ما شأنكنّ وما خبركنّ عندما حاولنّ إغراء يوسف عن نفسه يوم الضّيافة، وحدّرتنّه من مخالفة مولاتِه إذا لم يُطعها فيما تُريدُ منه؟ هل أجابكنّ إلى شيءٍ من ذلك؟ فقلنّ جميعاً: معاذ الله، لم نر منه سوءاً، ولم نُجرب عليه خيانة.

وقالت مولاتُه امرأة العزّيز: الآن ظهر الحقّ وتبيّن بعد خفائه، فأنا التي حاولتُ معه، وبذلتُ جهدي في إغرائه لأجبره على الفاحشة، فأبى إباءً شديداً، وكان عفيفاً في سلوكه نزيهاً، صادقاً في قوله، إنّه بريء...

قالت: ولا أنزّه نفسي عن الخطأ والزّلل، فإنّ النّفس البشريّة كثيرة الأمر بالسوء والمعصية، تميل إلى الشّهوات، وتتأثّر بالمعريات، إلّا من رحمة ربّي فصرفه عن السوء، وعصمه من المعصية.. وقد أسلمت المرأة..

ولما تأكّد للملك براءة يوسف ونزاهته عليه السّلام، قال: جيئوا به ليكون من خاصّتي وأهل مشورتي.

فلما كلّمه وعرف فضله وقدره، قال له: إنك الآن عندنا ذا مكانة ومنزلة رفيعة، ومؤمن على أمورٍ عظيمة.

قال له يوسف عليه السّلام: اجعلني مسؤولاً عن خزائن الأرض التي تحت تصرّفك، وهي مصر، إنني خازن أمين، عليّ بشؤون التصرف فيها، بصيرٌ بالحساب.

قال ذلك لما يستقبلونه من السنين العجاف، ليتصرّف على الوجه الأصح والأرشد. وكان كذلك عليه السّلام.

ويجوز للمرء أن يظهر علمه لمن يجهله.

وَبَتَمَكِينٍ لَاتِقٍ وَمُنَاسِبٍ، جَعَلَ اللَّهُ لِيُوسُفَ الْعِزَّ وَالسُّلْطَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، يَتَّخِذُ مَنْزِلًا فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنْهَا، بَعْدَ الضِّيْقِ وَالْأَسْرِ وَالْحَبْسِ الَّذِي كَانَ فِيهِ. وَاللَّهُ يُصِيبُ بِفَضْلِهِ وَعَطَائِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، بَعْدَلِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ صَبَرَ عَلَى أذى النَّاسِ، وَأَحْسَنَ فِي صَبْرِهِ وَاحْتِسَابٍ، حَتَّى أَتَاهُ الْفَرْجُ.

وَأَنَّ ثَوَابَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّابِرِينَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ، أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِمَّا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا فِي شَأْنِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَغَيْرِهِ.

الآيات ٥٠ - ٥٧ من سورة يوسف، من قوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ } إِلَى { وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }.

الإيمان

الفلاح هو الفوز، وهو النجاح. ولا قبول لعمل، ولا فوز لمسلم، إلا بالإيمان. إيمان خالص، خالٍ من شوائب الشرك.

وجزاء الذين آمنوا بحق الإيمان، ولم يخلطوا بإيمانهم بشائبة من شرك، هو الأمن من عذاب الله يوم القيامة، وهم المهتدون إلى العقيدة الصحيحة، ومن عداهم في ضلال، كمن ادعى الإيمان وهو يتخذ الطواغيت شفعاء إلى الله، ويعتبر ذلك من تيمات الإيمان بالله:

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [سورة الأنعام: ٨٢].

وقال سبحانه: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } [سورة الأعلى: ١٤].

أي: فاز ونجا من تطهر من الشرك والمعاصي ومساوي الأخلاق والآداب، وأخلص العمل لله. ومثله قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } [سورة الشمس: ٩].

أي: فاز وسعد من أصلح نفسه وطهرها من الشرك والمعاصي ومساوي الأخلاق.

آمنا ولم يشكوا في ذلك أبداً:

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [سورة الحجرات: ١٥].

والمهمُّ هو الصدقُ في الإيمان:

ففي يوم القيامة إنما ينفعُ إيمانُ مَنْ كَانَ في الدُّنيا صادقاً في إيمانه وتوحيده، وهم جزاءَ إيمانهم وصدقهم جناتٌ عاليات، تجري من خلالِ أشجارها وفي أسافلها أنهارُ العسلِ واللبنِ وأنواع الأَشربة، مُقيمِينَ فيها أبداً، لا يزولون عنها ولا يحولون، ويُفيضُ اللهُ عليهم رضوانه الذي لا غايةَ وراءه، ويرضونَ هم، فلا شيءَ أعزُّ من رضوانه سبحانه، وهو الفوزُ والفلاحُ الذي لا أعظمَ منه ولا يُدانيه مَطْلَب:

{ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [سورة المائدة: ١١٩].

النفْسُ الْمُؤْمِنَةُ تدخلُ الجنةَ، فبشراها:

أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ بما قَالَ اللهُ، المصدِّقَةُ بما وعدَ به، الساكنَةُ إلى حُبِّه، المطمئنَّةُ إلى ذِكْرِهِ، ارجعي إلى ما أعدَّهُ اللهُ لكِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ في جَنَّتِهِ، راضيةٌ بما أعطاكِ مِنَ النِّعَمِ، مَرْضِيَّةٌ عندَ اللهِ بما قدَّمتِ مِنَ طاعةٍ وعمَلٍ صالحٍ. فادخلي في زُمرَةِ عباديِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، وادخلي جنَّتي في كَنَفِي ورحمتي.

الآيات:

{ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ }

{ ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مَرْضِيَّةً }

{ فادخلي في عبادي }

{ وادخلي جنَّتي }

[سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠]

ولا يكفي الإيمان بالله وحده، فالإيمان له أركان في الإسلام. وقد ورد في أول سورة البقرة، أن من آمن بالغيب، من أركان الإيمان المعروفة، وأقام الصلاة، وأدى الزكاة، وصدق بما جاء به النبي والرسل عليهم الصلاة والسلام من عند ربهم، وآمن بالبعث والجزاء، فإنه من المهتدين الفائزين.

قال الله تعالى في بيان الصفات الأساسية للمؤمنين للمهتدين المتقين:

{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [سورة البقرة: ٣ - ٥].

فالفلاح في الدين أن تكون مؤمناً أولاً على هدي من الكتاب والسنة، وعلى تقوى وبصيرة، لتكون عند الله من الفائزين.

ولا تجد أحداً من المؤمنين بالله واليوم الآخر - بصدق وإخلاص - يُوالون ويُصادقون أعداء الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو قبيلتهم وعشيرتهم، أو أيّاً من أقاربهم، فالعقيدة أهم من النسب، ومن والاهم فهو معهم يوم القيامة. والذين لا يُؤادوهم ولو كانوا أقرباءهم، فأولئك الذين أثبت الله في قلوبهم الإيمان وزينه لهم، فهم موقنون مُخلصون، وقواهم بروح من عنده، ليحصل لهم الطمأنينة والثبات على الإيمان والعمل الصالح، ويُدخلهم الله جناتٍ عالياتٍ واسعاتٍ، تجري في خلالها أنهارٌ من ماءٍ زلال، ومن لبن، وعسل، وحميرٍ لذيذٍ لا يسكر، مُخلّدين فيها أبداً، رضي الله عنهم بطاعتهم له، فأثابهم النعيم المقيم، ورضوا عنه بما آتاهم من الجنة والرضوان، أولئك عباد الله من أهل كرامته، ألا إن عباد الله المؤمنين المطيعين، هم السعداء الفائزون:

{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [سورة المجادلة: ٢٢].

والمؤمنون لهم نورٌ يومَ القيامة.

فبينما يكون الكافرون في رعبٍ وخوفٍ، ترى المؤمنين يمشي نورهم بين أيديهم وعن أيمنهم إذا مشوا، ويكون ذلك بحسب أعمالهم، ويقول لهم الملائكة: لكم البشرى جناتٍ وقصورٍ عالياتٍ تجري من تحتها الأنهار، ماكنين فيها أبداً، وذلك هو الفوز والفلاح، والسعادة الكبرى:

{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة الحديد: ١٢].

فلا يكون جزاء المؤمن والكافر واحداً. المؤمن هو الفائز.

لا يتساوى أهل النار من الكافرين، وأهل الجنة من المؤمنين، فالكافرون يفعلون الشرّ، ويرتكبون المعاصي والدنوب، ويتعاونون على الإثم والعدوان، ويظلمون، ويفسدون. والمؤمنون يفعلون الخير، ويطيعون الله فيما أمرهم، ويتعاونون على البرّ والتقوى، وينشرون العدل، ويدعون إلى الحق؛ فهم التاجون من النار، الفائزون برضى الله وحنّته. أمّا الكافرون، فعليهم غضبُ الله، ويحلُّ بهم عذابه يومَ الحساب:

{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة الحشر: ٢٠].

التوكل

أمر الله تعالى المؤمنين أن يتوكلوا عليه، ويعتمدوا عليه وحده، وعلى ذلك فليثبتوا. وكفى به حافظاً لمن فوض إليه أمره:

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [سورة إبراهيم: ١٢].

ومن انقاد لأمر الله، وفوض إليه أمره، وأخلص له الطاعة، وأحسن في عمله، فقد تعلق بأوثق ما يُتعلق به من الأسباب، واعتصم بما لا يخاف انقطاعه، وإلى الله وحده تصير الأمور، ليُجازي كلاً بما يستحق:

{ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }
[سورة لقمان: ٢٢].

وَمَنْ يَعْتَمِدْ عَلَى اللَّهِ وَيُفَوِّضْ إِلَيْهِ أَمْرَهُ، فَهُوَ كَافِيهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. إِنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ مَا يُرِيدُهُ، وَيُنْقِذُ مَا قَضَاهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مُّقَدَّرٌ بِمِقْدَارٍ، وَلَا يُوْجَدُ شَيْءٌ جُزْأً فِي الْكُونِ كُفْلَهُ، وَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ وُجُودِهَا، وَجَعَلَ لَهَا أَجْلاً تَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَفَوِّضُوا الْأُمُورَ إِلَى اللَّهِ، وَأَحْسِنُوا تَوَكُّلَكُمْ عَلَيْهِ:
{ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [سورة الطلاق: ٣].

الطاعة

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَاتَّبَعَ هَدْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحْسَنَ فِي عَمَلِهِ بِالْإِخْلَاصِ، فَهَذَا أَجْرُهُ مَضْمُونٌ عِنْدَ اللَّهِ:
{ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }
[سورة البقرة: ١١٢].

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ظَفَرَ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَأُجِيرَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ:
{ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [سورة الأحزاب: ٧١].

وَامْتَحَنَ نَبِيُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ فِي مَهْجَةِ قَلْبِهِ، وَحَيْدِهِ إِسْمَاعِيلُ، فَاسْتَجَابَ لِنِدَاءِ رَبِّهِ، وَآثَرَ الطَّاعَةَ عَلَى الْعَاطِفَةِ، وَنَجَحَ فِي الْامْتِحَانِ!
وَمَا كَانَ لَهُ وَلَدٌ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ. فَوَهَبَ لَهُ عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ، وَكَانَ عَاقِلًا حَلِيمًا، مُطِيعًا.

فَلَمَّا شَبَّ وَقَدَّرَ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ وَالِدُهُ، وَصَارَ يَرْتَحِلُ مَعَهُ، قَالَ لَهُ مَرَّةً: يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ - وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ - فَانظُرْ مَا تَقُولُ؟

قَالَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِيمَانٍ وَتَسْلِيمٍ، وَطَاعَةٍ وَصَبْرٍ جَمِيلٍ: يَا أَبَتِ، أَفْعَلْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ رَبُّكَ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا عَلَى قَضَائِهِ، مُحْتَسِبًا ذَلِكَ عِنْدَهُ. فَلَمَّا اسْتَسْلَمَا وَانْقَادَا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَكْبَهُ إِبرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ، نُودِيَ: يَا إِبرَاهِيمُ،

لَقَدْ أَوْفَيْتَ الرَّؤْيَا حَقَّهَا بِعَزْمِكَ عَلَى ذَبْحِ وَلَدِكَ، وَهَكَذَا نَجْزِي عِبَادَنَا الْمُطِيعِينَ، وَنَصْرِفُ عَنْهُمْ الشَّدَائِدَ وَالْمَكَارِهِ.

إِنَّ هَذَا هُوَ الْإِبْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ الصَّعْبُ الْبَيِّنُ. وَفَدَاهُ اللَّهُ بِحَيَوَانٍ عَظِيمٍ لِيُذْبَحَ بَدَلًا مِنْهُ. ذَكَرَ أَنَّهُ كَبَشٌ. وَأَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ الطَّيِّبَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَّمِ وَالطَّوَائِفِ كُلِّهَا. سَلَامٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ إِبرَاهِيمَ، وَسَلَامٌ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَهَكَذَا يُثَبِّتُ اللَّهُ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَمُطِيعًا لَهُ، فَيَرْفَعُ ذِكْرَهُ، وَيَجْزِيهِ خَيْرَ الْجَزَاءِ. الْآيَاتُ:

{ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ }

{ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ }

{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ

أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ }

{ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ }

{ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبرَاهِيمُ }

{ قَدْ صَدَّقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }

{ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ }

{ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ }

{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ }

{ سَلَامٌ عَلَى إِبرَاهِيمَ }

{ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }.

(تفسيرُ الآياتِ ١٠٠ - ١١٠ من سورة الصافات).

والفوزُ والفلاحُ في طاعةِ أنبياءِ الله، ومن عصاهم فقد خاب وخسر. لما خرجَ طالوتُ ملكُ بني إسرائيلَ بجُنودِهِ وبمن خرجَ معه من بني إسرائيلَ، قال لهم: سيختبرُكم ربُّكم ليرى طاعتكم، حيثُ تقطعونَ نهرًا - وكانَ عذاباً ماؤه - فمن شربَ منه فلا يصحِّبني في الحربِ، إلا ما كانَ مقدارَ كَفِّ اليدِ، فلا بأسَ به، ومن لم يشربْ فليصحِّبني في هذا الوجه. فشرِبَ أكثرُهم، ودُكِرَ أنَّهم كانوا عطاشاً، وبقي القليلُ الذي لم يشربْ، طاعةً لله. وكانتِ الحكمةُ من هذا الابتلاءِ فَرَزُ الضعفاءِ المتذبذبينَ من الثابتينَ الأقوياءِ، فالذين شربوا ما كانوا ذوي إرادةٍ وطاعة، فما كانوا يصلحونَ للحربِ والقتالِ، بل إنَّ فعلَهُم هذا يُنبئُ عن ضعفٍ وعلَّةٍ، وأنَّهم سيكونونَ عالَةً على بقيَّةِ الجندِ، وأنَّهم لضعفِ إرادتهم قد ييئونَ الهلعَ وروحَ الهزيمةِ بينهم. ففصلَهُم ملكُهُم ولم يسمَحْ لهم بالمشاركةِ في الحربِ الكبيرةِ التي تنتظرُهُم. فلما استقلَّ طالوتُ بالجنودِ المؤمنينَ الباقينَ معه، وقد صاروا إلى قِلَّةٍ، وقابلوا جيشَ جالوتَ الكبيرِ، قالوا: لا قُدرةَ لنا على مُحاربتِهِم؛ لكثرتهم، فقال لهم علماؤُهُم والخلَّصُ منهم، المؤمنونَ بلقاءِ الله وحُسنِ ثوابِهِ: إنَّ جماعةً قليلةً، مُؤمنةً في عقيدتها وعزمها وتوكلِها، تستمدُّ قوتها من الله ووعده بالنصرِ والجزاءِ، ستغلبُ فئةً كبيرةً عدوةً لا تعتمدُ سوى على قوتها الظاهرة، بإذنِ الله وتيسيره، فلا تُغني كثرتهم مع خذلانِ الله لهم، ولا تضرُّ قِلَّةُ الفئةِ المؤمنةِ مع تأييده ونصره لهم، وإنَّ الله سيثبتُ الفئةَ الصابرةَ وينصرها، ويمدُّها بالمعونةِ والتوفيقِ، فتقدَّموا ولا تتوانوا. والمؤمنونَ مختلفونَ في قوَّةِ اليقينِ وقوَّةِ الإرادةِ:

{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [سورة البقرة: ٢٤٩].

الفوزُ لمن خشِيَ اللهَ وأطاعه.

وَمَنْ يُطِيعِ أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ رَسُولِهِ، وَيَخْفِ اللَّهَ وَيَجْتَنِبُ مَا نَهَى عَنْهُ، فَأُولَئِكَ النَّاجُونَ، الْفَائِزُونَ بِجَنَّةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ.

{ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [سورة النور: ٥٢].

مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مُلتزماً بفريضته وقسمته، مِنْ غيرِ حيلةٍ ولا خيانةٍ، يَلْقَى جِزَاءً طَيِّباً مِنْ رَبِّهِ، فَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ، مَعَ خُلُودٍ دَائِمٍ، وَهُوَ فَوْزٌ عَظِيمٌ، لِمَنْ عَرَفَ حُطُورَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُولَهُ وَشِدَّتَهُ:

{ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [سورة النساء: ١٣].

بل هو في درجاتٍ عليا، وفي صحبةٍ كرام:

فَمَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، فَانْقَادَ لِأَمْرِهِ وَهَيْمِهِ، وَاسْتَجَابَ لِرَسُولِهِ فِيمَا بَلَّغَ عَنْهُ، فَأُولَئِكَ الْمُطِيعُونَ دَرَجَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الَّذِينَ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ وَجَعَلَهُمْ خَيْرَ النَّاسِ، مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ تَوَلَّاهُمْ اللَّهُ بِالصَّلَاحِ فَصَلَحَتْ سِرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ، وَمَا أَحْسَنَ هَؤُلَاءِ رِفْقَةً، وَلطَافَةً وَعِشْرَةَ:

{ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [سورة النساء: ٦٩].

الاتباع

إذا كنتَ مُتَّبِعًا لهُدَى اللَّهِ، فلا خَوْفَ عَلَيْكَ، فَلَكَ الْأَمَانُ عِنْدَ اللَّهِ، لا تَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، وَلا تَحْزُنُ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا. لَقَدْ نَجَّحْتَ إِذَا! قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

{ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [سورة البقرة: ٣٨].

إِنَّ اتِّبَاعَ أوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُدَى أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُوَدِّي إِلَى فَلَاحِ الْقَوْمِ.
فَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِتَبْلِيغِ دِينِهِ، النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي مَا كَانَ يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، وَهَذَا مُعْجِزَةٌ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، - وَصِفَةُ الْأُمِّيَّةِ لَا تُذَكَّرُ لِلْمَدْحِ لَعَبْرِهِ - وَهُوَ الَّذِي يَجِدُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ، اسْمُهُ وَصِفَتُهُ، فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْخَيْرِ وَالتَّقْوَى وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ وَالشِّرْكِ وَقَطَعَ الْأَرْحَامَ وَالْفَوَاحِشَ، وَيُجِلُّ لَهُمْ طَيِّبَاتِ الْأَطْعِمَةِ وَالذَّبَائِحِ مِمَّا كَانَ يُحْرِمُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ دُونَ حَقِّهِ، وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمْ مَا حَبَّتْ مِنْهَا، كَالْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخَنْزِيرِ، وَيُسَيِّرُ عَلَيْهِمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَيَرْفَعُ عَنْهُمْ مَا يُثْقِلُ كَاهِلَهُمْ، وَمَا فِيهِ تَكَالِيفُ شَاقَّةٌ، وَأُوَامِرُ صَعْبَةٌ تَطَوَّقُهَا، مِمَّا كَانَ مَفْرُوضًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقُوبَةً لَهُمْ.

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَبَوَّتَهُ، وَوَقَرُّوه، وَنَصَرُوهُ فِي جِهَادِهِ ضِدَّ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَاتَّبَعُوا الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:
{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُهُمُ الْحَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٧].

وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُدْوَةٌ لَنَا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْوَالِهِ وَشَمَائِلِهِ، لِمَنْ كَانَ يَخْشَى اللَّهَ وَيَرْجُو ثَوَابَهُ يَوْمَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَذَكَرَ اللَّهُ ذِكْرًا كَثِيرًا فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِ، فَنَقُولُ مَا يَقُولُهُ، وَنَفْعَلُ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ، إِلَّا مَا كَانَ خَاصًّا بِهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [سورة الأحزاب: ٢١].

وَيَبْشُرُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُوَحِّدُونَ بِالثَّوْبَةِ الْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ، فَيُؤْثِرُونَ كِتَابَ رَبِّهِمْ وَيَتَّبِعُونَ، أَوْ أَهْمَ يَتَّبِعُونَ أَحْسَنَ مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ فَيَعْمَلُونَهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَى دِينِهِ، وَإِلَى مَا فِيهِ الثَّوَابُ الْعَظِيمُ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ، وَالْفِطْرِ السَّلِيمَةِ:

{ فَبَشِّرْ عِبَادِ }

{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ }
[سورة الزمر: ١٧ - ١٨].

الثبات

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَقَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ تَبَتُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ، وَلَمْ يَخْلُطُوهُ بِرِيَاءٍ وَشِرْكَ، تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَعِنْدَ الْبَعْثِ، أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَتَوَقَّعُوا مَكْرُوهًا مِمَّا يَأْتِي مِنَ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَغْتَمُّوا وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا خَلَّفْتُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ وَمَالٍ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمِ الَّذِي كَانَ يَعِدُكُمْ بِهِ اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

وَتَقُولُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ لَهُمْ: نَحْنُ كُنَّا فِي الدُّنْيَا أَنْصَارَكُمْ وَأَعْوَانَكُمْ فِي الْخَيْرِ، نُرْشِدُكُمْ إِلَى مَا فِيهِ فَوْزُكُمْ وَفَلَاحُكُمْ، وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَنُنْزِلُكُمْ فِي وَحْشَةِ الْقُبُورِ، وَنَتَلَقَّكُمْ بِالْأَمْنِ وَالْكَرَامَةِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَطْعِمَةِ وَالْفَوَاكِهِ الْمَسْتَلَدَّةِ، وَلَكُمْ فِيهَا كُلُّ مَا تَطْلُبُونَ وَتَتَمَنَّونَ.

ضِيَافَةً وَإِكْرَامًا لَكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ذِي الْمَغْفِرَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ.

الآيات:

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ }

{ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ }
[سورة فصلت: ٣٠ - ٣٢].

فالاستقامة بمعنى الثبات.

ومثله قوله تعالى في الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة الأحقاف:

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }
{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .
لقد فازوا بالجنة والنعيم الدائم، جزاء عملهم الصالح، وثباتهم على دينهم.

التحاكم إلى الله ورسوله

إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم، إذا دُعوا إلى حكم الله وقضاء الرسول بينهم، استجابوا لنداء الحق وقالوا: سمعنا كلام الله وأطعنا حكمه. فأولئك هم السعداء الفائزون.
يقول ربنا سبحانه:

{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [سورة النور: ٥١].

ولا يصح ولا يستقيم لرجل ولا لامرأة من المؤمنين إذا حكم الله ورسوله بشيء، أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل الواجب عليهم أن يسمعوا ويطيعوا، ومن يعص الله ورسوله ويعمل برأيه وهواه، دون حكم الله ورسوله، فقد ضلَّ عن طريق الحق، وانحرف انحرافاً بيئاً:
{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [سورة الأحزاب: ٣٦].

العمل الصالح

لا نجاح للمرء إلا إذا عمل صالحاً، فكان على إيمان صحيح، واستقامة في السلوك والعمل، حتى يغفر الله له ذنوبه، ويفوز بالثواب العظيم من عند الله:
{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } [سورة العنكبوت: ٧].

ومن أطاع الله وعمل الأعمال الصالحة، فلأنفسهم يستعدون، ولجنات النعيم يتهيؤون:

{ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمَّهْدُونَ } [سورة الروم: ٤٤].

فَإِنَّ نَفْعَهُ يَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ الْعَمَلَ فَإِنَّ سُوءَ عَاقِبَتِهِ يَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ، فَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِهِمْ، وَلَا يَزِيدُ فِي عِقَابِهِمْ:
{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [سورة فصلت: ٤٦].

ومن عمل صالحاً أدخله الله في جملة عباده الصالحين:

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ } [سورة العنكبوت: ٩].

وهم أفضل الناس:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَخْلَصُوا فِي إِيْمَانِهِمْ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ الْمُوَافِقَةَ لِلشَّرِيعَةِ، أَوْلَئِكَ هُمْ أَحْسَنُ الْخَلِيقَةِ أَعْمَالًا.

ثَوَابُهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَنَّاتُ إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا تَحْوُلًا، لِمَا فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالنَّعِيمِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَرِضْوَانُهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَى مَا أُوتُوهُ مِنَ النَّعِيمِ. وَرَضُوا عَنْهُ فِيمَا مَنَحَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْعَمِيمِ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَهَذَا الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، هُوَ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يُخَالِفْ أَمْرَهُ:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ }

{ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }

[سورة البينة: ٧ - ٨]

وهم بذلك ينتظرون الثواب العظيم، فبُشِّرُوا لَهُمْ:

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

كَبِيرًا } [سورة الإسراء: ٩]

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [سورة البقرة: ٢٥].

وفوزٌ برحمة الله.

فالذين آمنوا وأخلصوا في إيمانهم، وعملوا فأحسنوا في أعمالهم، أدخلهم الله في جنّته، وهو النّجّاحُ البين، والسّعادةُ الكبرى يوم القيامة:

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [سورة الجاثية: ٣٠].

ومخلدون في الجنة:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة البقرة: ٨٢].
{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [سورة العنكبوت: ٥٨].

والعملُ الصالحُ يكونُ مع الإيمان، ومن دونه لا ينفع، كما قال الله سبحانه:

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [سورة النساء: ١٢٤].

وكما قال جلّ جلاله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} [سورة محمد: ٢].

وإصلاحُ الحالِ يكونُ في الدّين والدُّنيا بالتّوفيق والتّأييد، والهداية والسّداد.

وهذه الآيةُ تجمعُ بين الإيمان، والغفران، والجنة، والخلود، وبيان أن ذلك نجاحٌ عظيمٌ لصاحبه:

{وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التغابن: ٩].

فَمَنْ يَصِدُقْ فِي إِيمَانِهِ، وَيُجْلِصْ فِي عَمَلِهِ، يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ، وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ عَالِيَاتٍ، وَقُصُورٍ
وَاسِعَاتٍ، تَجْرِي مِنْ خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ، مَخْلُودِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ، وَالسَّعَادَةُ
الْكَبِيرَةُ.

فالأعمال الصالحة هي الباقية:

فَالطَّاعَاتُ وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ جَزَاءً، فَتَبَقَى فَوَائِدُهَا وَتَدْوِمُ عَوَائِدُهَا، وَخَيْرٌ عَاقِبَةً
وَمَرْجَعًا عَلَى صَاحِبِهَا، فَتَتِيحُهَا النَّعِيمُ الْمُقِيمُ، وَرِضَاءُ رَبِّ الْعَالَمِينَ:
{وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} [سورة مريم: ٧٦].

ووعدٌ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يمكنوا من الحكم.
قال سبحانه:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة النور: ٥٥].
أي: وعد الله من آمن منكم بصدق وإخلاص، وأحسن في العمل، أن يستخلفهم في الأرض،
ويجعل الحكم بأيديهم، كما جعل الخلافة فيمن قبلهم من المؤمنين، وليثبتن دين الإسلام الذي
اختاره لهم ويجعله فوق كل الميل والتحل، وليبدلن حالهم من بعد خوفهم وصبرهم على أذى
أعدائهم أمنًا وعزًا، يوحدون الله في عبادتهم آمنين، غير خائفين أحدًا غيره، ومن خرج عن
طاعته وارتد بعد بيان الحق وظهور الدين، فقد كفر وعصى.

رجحان الحسنات

ولا يكفي أن يكون عملك صالحًا حتى تنجح في الاختبار، بل ينبغي أن يكون أكثر من
عملك السيئ.

ووزنُ الأعمال، والتَّمييزُ بين الصالح منها والفسادِ يومَ الحساب، حقٌّ ثابتٌ عدلٌ، فمن رَجَحَتْ كِفَّةُ مَوازِينِهِ بالحَسَنَاتِ، فقد فَازوا بالنَّجاةِ والثَّوابِ.

وَمَنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ مَوازِينِهِ بالسَّيِّئَاتِ، فَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ، نَادِمِينَ مُتَحَسِّرِينَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ، وَعَلَى مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَهَذَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِمُجْحِنَا وَأَدَلَّتْنَا، وَيُكذِّبُونَ رُسُلَنَا.

قالَ رَبُّنا سَبْحانَهُ:

{ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

{ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ } [سورة الأعراف: ٨ - ٩].

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُمُ بالحَسَنَاتِ وَرَجَحَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ، فَأُولَئِكَ هُمُ النَّاجُونَ، الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ.

ويقولُ سَبْحانَهُ أَيضاً:

{ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ }

{ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ }

{ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ }

{ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ }

[سورة القارعة: ٦ - ٩]

أي: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ،

فَهُوَ فِي حَيَاةٍ كَرِيمَةٍ مَرْضِيَةٍ فِي الْجَنَّةِ.

وَأَمَّا مَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، أَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ يُعْتَدُّ بِهَا،

فَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ، يَهْوِي فِيهَا إِلَى قَعْرِهَا الْبَعِيدِ، لَا مَسْكَنَ لَهُ غَيْرُهَا.

الجهاد

الجهادُ أَجرُهُ عَظِيمٌ. وَيَأْتِي فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ عِنْدَ الْمُسْلِمِ. وَالْمَشْتَغَلُّ بِهِ مِنَ الْفَائِزِينَ.

وكانَ قد جرى حديثٌ بينَ بعضِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم حولَ أفضليَّةِ الأعمالِ، فنزلتِ الآياتُ، وبيَّنتُ أنَّ الجهادَ أفضلُ، كما في صحيحِ مُسلمٍ. وتفسيرها:

أجعلتُم أيُّها الناسُ سقايةَ الحُجاجِ وخدمةَ المسجدِ الحرامِ، كإيمانِ مَنْ آمَنَ باللهِ وبالْيومِ الآخِرِ، وجاهدِ مَنْ جاهَدَ في سبيلِ اللهِ؟ ليسُوا سِواءَ، فالآخِرُ خَيْرٌ وأحسَنُ، معَ فَضْلِ في الأوَّلِ لا يُنكَرُ. واللهُ سُبْحانَهُ لا يَهْدِي مَنْ اهُمَّكَ في الضَّلالِ، وأصرَّ على الخِطأِ.

إنَّ الذينَ آمَنُوا باللهِ ولم يُشركُوا بِهِ شَيْئاً، وأنفقُوا أموالَهُم لِنُصرةِ دينِهِ، وبَدَلُوا مُهَجَّهُم جِهاداً في سبيلِهِ، هم أكبرُ درجةً، وأرفعُ شأنًا عندَ اللهِ مِنَ الذينَ افتخروا بما دونَ ذلكِ، وآثروا السِّقايةَ والعمارةَ في المسجدِ الحرامِ، وأولئكُ المؤمنونَ والمجاهدونَ همُ الذينَ حازوا الحَيْرَ والدرجاتِ العُليا. ولهؤلاءِ مِيزةٌ كُبرى، فإنَّ رَبَّهُم يُبَشِّرُهُم في يَوْمِ الفَرَجِ الأكبرِ بِالرَّحمةِ والأَمَنِ، والرِّضَى والعافيةِ، وجَنَّاتٍ عاليةٍ فيها النعيمُ الدائمُ، من كلِّ ما تشتهيه الأَنفُسُ وتَلذُّ الأَعينُ.

معَ خُلُودِ دائِمٍ في تلكِ الجِنانِ الرائعةِ، واللهُ واسِعٌ كريمٌ، يُثيبُ على الأعمالِ الحسنةِ أضعافَها، ويدخِرُ لعبادِهِ المؤمنِينَ أحسنَ الأجورِ وأجلَّ العطايا.

الآياتُ في ذلكِ:

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } .

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } .

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } .

{ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } .

[سورة التوبة: ١٩ - ٢٢] .

ومن انتصرَ لدينِ اللهِ، بالقتالِ، والإنفاقِ، وما إليه، فإنَّ اللهُ سينصُرُهُم على عَدُوِّهِم، ويثبتُ أقدامَهُم عندَ الحربِ، ويَقوي عَزائمَهُم:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [سورة محمد: ٧] .

وقد رضي الله عن المؤمنين الذين شهدوا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ بايعوه تحت شجرة الطلح هناك على مناجزة فريشٍ وعدم الفرار من المعركة، إذا حدثت الحرب، فعلم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء في مبايعتهم، فأنزل الطمأنينة والأمن عليهم، وثبتهم على الرضا والقبول، وجزأهم فتحاً قريباً ينالونه، وهو الصلح، الذي تبعه خيرٌ عظيم، فأسلم كثيرٌ من الناس، وانتشر العلم والإيمان:

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [سورة الفتح: ١٨].

والذين جاهدوا في سبيل الله بصرهم بالصراط السويِّ وأحسن إليهم وجزأهم عليه:

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة العنكبوت: ٦٩].

أي: والذين جاهدوا المشركين في سبيلنا بإخلاصٍ وتقوى، لنُبصِّرهم طريقنا السويَّة التي تأخذ بيدهم إلى الفوز والفلاح، وإنَّ الله مع المحسنين، الذين جاهدوا وتحملوا مشاقَّ الدعوة، وصبروا على تكاليف الدين، فيؤيِّدهم ويُعينهم في الحياة الدنيا، ويجزيهم ثواباً عظيماً يوم القيامة.

ولقد أفلح وفاز من جاهد:

{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التوبة: ٨٨].

وبشرى لهم:

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ١١١].

فاستبشروا معشر المجاهدين في سبيله، وابتهجوا ببيع أنفسكم وأموالكم لله، الذي يأخذكم إلى ساحات الجهاد، ومنها إلى جنات الله الخالدات، كما وعدكم الله بذلك، وهو القوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، والنعيم المقيم الذي لا سعادة وراءه.

فالتجارة مع الله بالجهادِ رابحةٌ مؤكّداً.

وقد سأل الصحابةُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أَحَبِّ الأَعْمَالِ إلى اللهِ تَعَالَى لِيَفْعَلُوهُ، فنزلتِ الآيات، وتفسيرها:
أيُّها المؤمنون، هل أرشدكم إلى تجارةٍ جليلةٍ الشَّان، تَرْبِحُونَ فِيهَا رِضَى اللهِ، وَتَنْجُونَ بِهَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ؟

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، لَا شِرْكَ فِيهِ وَلَا رِيَاءَ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، فَالْإِيمَانُ وَالْجِهَادُ خَيْرٌ لَكُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ، إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيقَانِ.

فَإِنْ آمَنْتُمْ وَجَاهَدْتُمْ، يَغْفِرِ اللهُ ذُنُوبَكُمْ، وَيَرْحَمَكُم، وَيُسْكِنُكُمْ جَنَّاتٍ وَسَاعَاتٍ، تَجْرِي مِنْ خِلَالِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ بِأَنْوَاعِهَا، وَقُصُورًا عَالِيَةً طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ إِقَامَةٌ دَائِمَةٌ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ، وَالسَّعَادَةُ الدَّائِمَةُ:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {
{ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {
{ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {
[سورة الصف: ١٠ - ١٢].

إن الله اشترى من المجاهدين أنفسهم وأموالهم ليُدخلهم بها الجنة. وعدًا عليه سبحانه. فإن فعلوا فقد فازوا.

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ { [سورة التوبة: ١١١]

فاسْتَبَشِرُوا مَعَشَرَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَابْتَهَجُوا بِبَيْعِ أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ لِلَّهِ، الَّذِي يَأْخُذْكُمْ إِلَى سَاحَاتِ الْجِهَادِ، وَمِنْهَا إِلَى جَنَّاتِ اللَّهِ الْخَالِدَاتِ، كَمَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَهُوَ الْفَوْزُ الَّذِي لَا فَوْزَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَالتَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا سَعَادَةَ وَرَاءَهُ.

وَالشُّهَدَاءُ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْ الْإِكْرَامِ الْعَظِيمِ وَالتَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَيُصْلِحُ أَمْرَهُمْ وَحَالَهُمْ، فَيَرْضَى خُصْمَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُقَابِلَ حُقُوقِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَيَقْبَلُ أَعْمَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ كَمَا وَعَدَهُمْ بِهَا، وَقَدْ عَرَّفَهُمْ بِمَا فِيهَا، وَبَيَّنَّ لَهُمْ مَنَازِلَهُمْ فِيهَا، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا. كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

{وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}

{سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}

{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هَلُمَّ}.

[سورة محمد: ٤ - ٦].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ فِرْقَةٌ أَوْ جَمَاعَةٌ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، وَتَنْهَى عَنِ الشَّرِّ، وَتَأْمُرُ بِالْفَضِيلَةِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَتَنْهَى عَنِ الرَّذِيلَةِ وَالْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ. وَهِيَ مَهْمَةٌ لَيْسَتْ بِسِيرَةٍ، حَيْثُ الْأَصْطِدَاءُ بِطَبَائِعِ نَاسٍ وَرَغَائِبِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ. وَمَنْ قَامَ بِهَذَا التَّكْلِيفِ فَهُوَ مِنَ الْمَفْلِحِينَ الْفَائِزِينَ.

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٤].

قال ابن كثير: والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

والذي يظهر أنّ خيريّة هذه الأمة مُرتبطةٌ بكونها تأمرُ بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، كما في الآية التالية، فإذا لم تفعل ذلك لم تحز هذه الفضيلة:

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [سورة آل عمران: ١١٠].

أي: كنتم يا أمة الإسلام خير الأمم وأفضلها وأنفعها للناس، حيث تأمرون الناس بالخير، وتتشرون الحق والعدل، وتحثون على الفضائل والآداب الحسنة، وتنهونهم عن المنكرات والفواحش والأخلاق المسترذلة، وتؤمنون بالله الواحد الأحد، فتعبدونه ولا تشركون به شيئاً.

ومن أمر بالمعروف دل على قوة عزمته، وقد أوصى لقمان ابنه به. وهو أمر بما هو خيرٌ وحسنٌ من الأمور، ونهي عما هو فاحشٌ وسيءٌ، ويكون بحسب الطاقة والجهد، باليد، وإلا فباللسان، ومن لم يستطع فبالقلب:

{ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [سورة لقمان: ١٧].

ومن كان أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، رحمه الله.

فالمؤمنون والمؤمنات يتناصرون ويتعاونون على البر والتقوى، ويتعاضدون على ما فيه خيرهم وخير الناس.

فيأمرُونَ بالإيمان والطاعة والإصلاح، وينهون عن الشرك والمعصية وما يخالف أحكام الشرع، ويؤدون الصلوات المطلوبة منهم، ويعطون الحقوق الواجبة المترتبة على أموالهم، ويطيعون الله ورسوله، فيما أمر ونهى، أولئك المتصفون بتلك الصفات، سيرحهم الله ويتولاهم بلطفه...

كما قال سبحانه: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [سورة التوبة: ٧١].

جماع الخير

ومن جمع أطراف الخير، فقد حاز النجاح من جوانبه.

وجماع الخير في العقيدة الصحيحة، والطاعة لله، والتسليم بأمره، الذي يُعطي القيمة والقَبولَ لتلك الأعمال، الإيمانُ به عزَّ وجلَّ أولاً إيماناً عميقاً، وباليومِ الآخرِ وما فيه من جزاءٍ وحساب، ونعيمٍ وعذاب، وبالملائكةِ جُنْدِهِ ورسلهِ بينه وبين عبادِهِ، وبالكتابِ الحقِّ المنزلِ من عندِ الله على رسوله لهدايةِ عبادِهِ، آخِرها القرآن، الذي نسَخَ كلَّ ما قبلَهُ من الكتب. وبأنبياءِ الله كلِّهم، حتَّى خاتمهم محمدٍ صلى الله عليه وسلم، من غيرِ تفرقةٍ بينهم كما فعلَ أهلُ الكتاب.

والمؤمنُ الصادقُ أيضاً هو من أنفقَ من ماله وهو محبُّ له راغبٌ فيه، فأعطاه لأهله وأقربائه، ولليتامى الذين فقدوا آباءَهُم وكانوا صِغاراً ضِعفاء، والمساكينَ الذين لا يجدونَ ما يكفيهم، وابنِ السبيلِ الذي نفدتْ نفقتهُ وهو بعيدٌ عن وطنه، والسائلينَ الذينَ ألبأَتْهُم الحاجةُ والضرورةُ إلى السؤال، وفي الرِّقاب: العبيدَ الذينَ يُريدونَ أن يُصبحوا أحراراً ولا يجدونَ المبلغَ الكافيَ لإعطائه أسيادَهُم من أجلِ ذلك.

ثمَّ حافظَ على عبادتِهِ، فأقامَ الصلاةَ المفروضةَ بشروطِها وأركانِها، وأدَّى زكاةَ ماله. وأنَّ يكونَ منَ الأوفياءِ بعهودِهِم إذا عاهدوا، فلا يخنونَ ولا يَغْدِرُ كالمُنافقينَ ومنَ حذا حذوهم. ومنَ الصابرينَ إذا أصابَهُ مَكروه، كفقيرٍ أو مَرَض. وكذلك في حالِ القتالِ ولقاءِ العدوِّ. فهؤلاءِ الذينَ اتَّصفوا بهذه الصفاتِ، هم الذينَ صدَّقوا ربَّهم في إيمانِهِم، فاتَّبَعوا الحقَّ، وتحرَّوا البرَّ، وأحرزوا الخيرَ، وابتعدوا عن المحارمِ والموبقاتِ وسائرِ الرذائلِ، وفعلوا الطاعاتِ المطلوبةَ منهم؛ امتثالاً لأمرِ الله وحشيَّةً منه.

قال عزَّ من قائل:

{ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [سورة البقرة: ١٧٧].

ومن الامتحانات التي تجاوزها المؤمنون في الحياة الدنيا بنجاح، وفازوا بأحسن النتائج وأفضل المواقع في الحياة الآخرة:

الذين استجابوا لأوامر الله، ووفوا بعهده إذا عاهدوا، ولم يكونوا كالمنافقين الذين نقضوا المواثيق وغدروا بالعهود، سواء ما بينهم وبين الله، وما بينهم وبين العباد.

ومن صفاتهم: الإحسان إلى أهلهم وإخوانهم وطيب معاشرتهم، فيصلون أرحامهم ولا يقطعونها، ويحسون إلى أهل الحاجة، ويتكفلون مع إخوانهم المسلمين في أنواع البر والمعروف، ويحافون وعيد الله بحق، فلا يقربون ما نهى عنه وزجر، ويحافون عسر الحساب يوم المعاد، ويعرفون مآل المخالف والمرتاب.

وهم الذين قويت عزائمهم، فصبروا على التكاليف التي أمروا بها، وصبروا عما نهوا عنه، كما صبروا على الجهاد والدعوة، وعلى البلاء، وفي السراء والضراء، وهدبوا شهواتهم النفسية والبدنية بتوجيهات الدين الحنيف، ولم ينتقموا لأنفسهم عن هوى وعصية، بل صبروا لأنفسهم وتأدبوا بأدب الإسلام، طلباً لرضاء الله، وطمناً في جزيل ثوابه.

وأقاموا الصلاة، فواظبوا عليها وأدوها بأركانها وشروطها وفي مواقيتها. وأدوا زكاة أموالهم، وأنفقوا مما وهبهم الله من مال للمحتاجين ففوضوا حوائجهم، وأسهموا في أعمال الخير فتصدقوا سراً وجهراً، لا يمنعهم من ذلك شيء.

ويجزون الإساءة بالإحسان، ويدفعون الشر ما استطاعوا، ويدروون الأذى والقبیح من القول والفعل بخلق جميل، وكلمة طيبة، وعفو.

فأولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، لهم العاقبة الحسنة، والمرجع الطيب في الآخرة. لهم جنات مخصصة للإقامة والاستقرار الدائم، يهنئون فيها ويسعدون، يجمع فيها بينهم وبين الصالحين من أهلهم: آبائهم، وأمهاتهم، وأزواجهم، وأبنائهم، وأحفادهم، لتقر أعينهم، ويزداد فرحهم، والملائكة يدخلون عليهم من أبواب قصورهم، يهتئوهم بدخول الجنة.

ويقولون لهم وهم يطوفون بهم في لقاء حافل وتكريم جميل: "سلام عليكم"، بشارة لهم بدوام السلامة والأمان، في دار السلام، بجوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام، جزاء صبرهم على طاعة ربهم، فعمت العاقبة الحسنة الجنان العالية، والإقامة الدائمة فيها.

الآيات:

{الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} .
 {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} .
 {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ هُمُ عُقْبَى الدَّارِ} .
 {جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ
 كُلِّ بَابٍ} .
 {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} .
 [سورة الرعد: ٢٠ - ٢٤] .

فللمؤمنين الفائزين صفات، تحلوا بها حتى فازوا بالدرجات العليا من الجنة، منها ما ذكر في أول
 سورة (المؤمنون).
 لقد سعد المؤمنون وفازوا ببغيتهم.
 الذين هم ساكنون خائفون في صلاتهم، قد خشعت قلوبهم وخضعت جوارحهم.
 والذين هم معرضون عن الكلام الباطل، وما لا فائدة فيه.
 والذين يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمحتاجين.
 والذين يحافظون على فروجهم من الحرام، فهم أعفة، لا يرتكبون الفواحش.
 ولا يقربون سوى ما أحل الله لهم من أزواجهم، أو ما ملكت أيماهم من السراي، فلا حرج
 عليهم في ذلك ولا لوم.
 فمن طلب غير زوجاته وإمائه، فهو من المعتدين، المتجاوزين الحلال إلى الحرام.
 والذين هم مؤتمنون على أماناتهم وعهودهم، حافظون لها وموفون بها، فلا يخونون ولا يغدرون.
 والذين يحافظون على صلواتهم المفروضة عليهم، فيؤدونها في وقتها، وبأركانها وشروطها.
 فأولئك المؤمنون هم أصحاب حق ينتظرهم لينالوه.
 الذين ينالون جنة الفردوس ويمكثون فيها أبداً، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.
 والفردوس "أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن"، كما في
 الصحيحين.

الآيات:

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ }
{ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }
{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ }
{ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ }
{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ }
{ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ }
{ فَمَنْ ابْتغى وراء ذلك فأولئك هم العادُونَ }
{ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ }
{ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }
{ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ }
{ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [سورة المؤمنون: ١ - ١١].

ومن صفات عباد الرحمن المتقين الجامعة للخير أيضاً:

أَهمَّ يمشون على الأرض بتؤدة وسكينة، فهم متواضعون هينون، غير مُستكبرين ولا مُتجبرين، وإذا قال لهم السفهاء كلاماً لا يليق، لم يُقابلوهم بمثله، فعفوا وصفحوا، وحلموا ولم يجهلوا، ولم يقولوا إلا خيراً.

وهم الذين يُحيون الليل أو بعضه، فيسجدون لله ويخشعون، ويقومون في صلاتهم قارئين عابدين. والذين يقولون في رهبة وخشوع: رَبَّنَا أَبْعَدْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، إِنَّ عَذَابَهَا مُلَازِمٌ مُسْتَمِرٌّ، غير مُفارق.

إنها بنس الموضوع، وبنس المكان المقام فيه.

وهم الأخيار المعتدلون، الذين إذا أنفقوا لم يزيدوا فوق الحاجة، ولم يتجاوزوا حد الكرم، وكذلك لم ييخلوا ولم يمسكوا أيديهم عن الإنفاق، بل كانوا وسطاً وعدلاً.

وهم المؤمنون الموحدون المخلصون، الذين لا يُشركون في عبادتهم مع الله أحداً.

ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها، إلا بسبب من الأسباب التي تُزيل هذه الحرمة، كالردة، والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس عمداً.

ولا يقربون الزنا، { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } [سورة الإسراء: ٣٢].

ومن يفعل ما ذُكر من المحرمات، فسيلاقى عقوبةً ونكالاً يُناسب عمله السيئ. يُعَظُّ له العذاب ويُضاعف له أضعافاً، ويبقى في ذلك العذاب أبداً، وهو ذليلٌ مُهان. ومضاعفة العقوبة يأتي من انضمام المعصية إلى الكفر.

إلا من تاب من تلك المنكرات في الدنيا، وآمن إيماناً صحيحاً، وعمل أعمالاً حسنة، فأولئك يحو الله سيئاتهم ومعاصيهم، ويُعطون بدلاً منها الثواب الحسن، تفضلاً وتكرماً منه سبحانه. أو أن المعنى: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وبالفسق إحصاناً، وبالكفر إسلاماً.

والله يغفر ذنوب عباده التائبين ويرحمهم، فيدخلهم الجنة إذا آمنوا وعملوا صالحاً.

ومن تاب من ذنوبه، كبيرة كانت أو صغيرة، وتدم عليها، وعمل بما أمره الله فأطاعه، فإنه يرجع إلى الله مرجعاً طيباً مرضياً عنه، فيقبل توبته، ويعفو عنه.

ومن صفات عباد الرحمن المتقين، أنهم لا يُدُلُّون بشهادات كاذبة، ولا يُساعدون أهل الباطل على باطلهم بالكذب المتعمد، فهذا من أكبر الكبائر، وقد قورن بالشرك وعقوق الوالدين، كما في الحديث الذي أخرجه الشيخان وغيرهما، من حديث أبي بكر المرفوع، واللفظ لمسلم: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً)؟: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، أو قول الزور. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَكَبِّراً، فجلس، فما زال يُكْرِرها، حتى قلنا: ليتها سكت". وإذا حدث أن مرؤوا بالكلام الذي لا خير فيه، أعرضوا عنه، وأكرموا أنفسهم عن الخوض فيه. وإذا تليت على هؤلاء المؤمنين آيات من القرآن الكريم، وما فيها من المواعظ والأحكام، والوعد والوعيد، لم يُصموا آذانهم عن سماع الحق، ولم يُعموا عُيُوتهم عن دلائله وحقائقه، بل أكبوا عليها مُتَدَبِّرِينَ بِأَذَانٍ وَاعِيَةٍ، وَعُيُونَ مُبْصِرَةٍ.

وهم الذين يدعون ربهم، ويطلبون منه أن يرزقهم الذرية المؤمنة، الطيبة المباركة، وأن يُقرَّ عُيُوتهم ويُفْرِح قُلُوبهم بأزواجهم وذرياتهم، بتوفيقهم لطاعته، ويقولون: اللهم واجعلنا أئمةً يُقتدى بنا في الخير، وهداةً يُهتدى بنا. وبهذا يكون أجرهم مُتَوَاصِلاً، ومضاعفاً.

فهؤلاء المتصِفون بصفات "عباد الرحمن"، يَنالون جنة الله الدائمة، وتبتدِرهم الملائكة بالتحية والسلام من كُلِّ باب، مع التقدير والإكرام. ويقيمون في الجنة على الدوام، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، وما أحسنها وأجملها موضعاً، وما أطيّبها منزلاً ومقاماً.

الآيات:

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}
{وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا}
{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}
{إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}
{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}
{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}
{يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}
{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}
{وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}
{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}
{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا سُومًا وَعُمِينَاتًا}
{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}
{أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا}
{خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}

[سورة الفرقان: ٦٤ - ٧٦].

فيا أيُّها المؤمنون، صلُّوا لله، واخضعوا في صلَّاتِكُمْ له جَلَّ جلالُه، وخرُّوا له سُجَّدًا، ووحدوه في عبادتِكُمْ له، ولا تُشركوا به شيئًا، وصلُّوا أرحامكم، وتمسَّكوا بمكارم الأخلاق، لكي تسعدوا وتفوزوا برضى الله وجنته:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [سورة الحج: ٧٧].

وفي سورة العصر، يتبيَّنُ الخاسرُ من الفائز:

وفيها قسمُ الله بالعصر، وهو الزَّمان، الذي يعيشُ فيه الإنسان، وتقعُ فيه أعمالُه.

ثمَّ: إنَّ الإنسانَ لفي خسارةٍ في عمره، لانشغاله بالدُّنيا، واستغراقه في مصالحه، وصرفِ وقتهِ في مطالبه وأهوائه، وإهلاكِ نفسهِ بالمعاصي،

إلاَّ الذين آمنوا وصدقوا في إيمانهم، وأدَّوا ما فرضَ اللهُ عليهم، وعملوا الأعمالَ الصَّالحةَ الموافقةَ للدين، وأخلصوا بما لوجهِ اللهِ تعالى، وأوصى بعضهم بعضًا بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطَّاعة، واتباعِ أمرِ اللهِ كُلِّه، وتواصوا كذلك بالصَّبرِ على الشَّدائدِ والمصائب، وعلى الجهادِ والدَّعوة، وعلى طاعةِ اللهِ سبحانه، وعلى تركِ المنكراتِ والمعاصي.

فهؤلاءِ ليسوا في حُسران: الذين جمعوا بينَ الإيمان، والعملِ الصَّالح، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر؛ بل هم الفائزون:

{ وَالْعَصْرِ }

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي حُسْرٍ }

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }.

الفهرس

| | |
|----|-------------------------------|
| ٣ | مقدمة |
| ٥ | الأخلاق الحميدة |
| ٦ | الصبر |
| ٨ | الإنفاق الخالص |
| ١١ | الوسطية |
| ١٢ | الدنيا والآخرة |
| ١٤ | أهل الآخرة |
| ١٥ | ذكر الله |
| ١٦ | الدعاء |
| ١٨ | الذكرى والعبرة |
| ١٩ | التقوى |
| ٢٥ | الحشية |
| ٢٩ | التوبة |
| ٣١ | الأخوة في الله |
| ٣٢ | الدعوة |
| ٣٣ | العلم |
| ٣٣ | الحجة والبرهان والجواب المسكت |
| ٤١ | الإيمان |
| ٤٤ | التوكل |
| ٤٥ | الطاعة |

| | | |
|----|-------|---------------------------------|
| ٤٨ | | الاتباع |
| ٥٠ | | النبات |
| ٥١ | | التحاكم إلى الله ورسوله |
| ٥١ | | العمل الصالح |
| ٥٤ | | رجحان الحسنات |
| ٥٥ | | الجهاد |
| ٥٩ | | الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ٦١ | | جماع الخير |
| ٦٨ | | الفهرس |